التحليل النفسي للأطفال

تأليف

أنَّا فرويد

ترجمة

محمد كامل النحاس

صدرت الطبعة الأولى عام 1947

الكتاب: التحليل النفسي للأطفال

تأليف : أنَّا فرويد

ترجمة : محمد كامل النحاس

الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

فرويد ، أنَّا

التحليل النفسي للأطفال / أنَّا فرويد / ترجمة : محمد كامل النحاس

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

101 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **6 – 691 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **4664 / 2018**

التحليل النفسي للأطفال

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

مؤلفة هذا الكتاب هي أنَّا فرويد **Anna Freud** بنت العلَّامة الشهير سيجموند فرويد **Sigmund Freud** (**1856 – 1939**) واضع أسس التحليل النفسي،

والكتاب يضم أربع محاضرات طويلة كانت قد ألقتها على عدد من المعلمين والمعلمات في مدينة فيينا، وقد ترجم الكتاب عن الألمانية إلى الإنجليزية[1]. ولقد حاولت المؤلفة أن توضح وجهة نظر التحليل النفسي في السنوات الأولى من الحياة، وكيف يتأثر الطفل في أثنائها بشكل يصوغ شخصيته التي قد يحملها معه مدى حياته، والتي تعكس نفسها دائما على مشاعره وعواطفه وأفكاره وسلوكه تجاه كل شيء، في جميع أطوار وجوده.

وما من شك في أن "أنَّا فرويد" متأثرة بآراء أبيها ونظرياته كل التأثر، فقد كانت تابعاً ذا أثر فعال من أتباعه الكثيرين، وتلميذة من أخلص تلاميذه. غير أنها حاولت في هذا الكتاب الصغير، أن تبتعد عن المناقشات الجدلية، والافتراضات التأملية التي انغمس فيها فرويد وكثير

(1) قامت بترجمة الكتاب عن الألمانية إلى الإنكليزية باربرا لو **Barbara–low** وقد عربته عن هذه الترجمة. ويجب أن أذكر أن العنوان الأصلي للكتاب هو مقدمة للتحليل النفسي للمربين (في الترجمة الإنكليزية "للمعلمين"). ولكني آثرت أن أعطي الكتاب اسم التحليل النفسي للأطفال خوفا من أن يفهم من العنوان الأصلي أن الكتاب مقصور فقط على المعلمين، والكتاب كله عن الطفل وتحليل نفسيته إلى سن المراهقة.

من أتباعه. ونجحت إلى حد كبير في رسم صورة جلية لحياة الطفل منذ أن ينشأ إلى أن يصل دور المراهقة، وبينت كيف يتفاعل الطفل – خصوصاً في الخمس السنوات الأولى التي تهتم بها مدرسة التحليل النفسي كل الاهتمام – مع مختلف العوامل التي تحوطه وأهمها والداه (والأم أكثر أهمية من أي عامل آخر في بدء الحياة) تفاعلا يترك في نفسه أثراً عميقاً قد يلازمه بقية حياته.

وما كان الاهتمام الكبير بالسنوات الأولى من حياة الطفل أمرًا جديدًا في الفكر الإنساني، بل نجد أن عددًا من الفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين القدماء، أولوا هذه السنوات عنايتهم الكبرى، فالغزالي يقول في الجزء الثالث من كتاب "إحياء علوم الدين"، تحت عنوان (بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم...) [2] ".. بل ينبغي أن يراقبه (القيم على الطفل والوالي له) من أول أمره، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال" ونهج بعض المصلحين الاجتماعيين نهج من أدرك أهمية السنوات الأولى في حياة الناشئ، فأنشأوا لذلك دور الحضانة لصغار الأطفال قبل أن يصلوا سن المدرسة، وكان أهمها وأبرزها تلك الدار التي أنشأها المصلح الاجتماعي روبرت أوين **Robert Owen** سنة **1816** في إنجلترا، والتي قام على منوالها دور كثيرة في

---

[2] صفحة **62** من كتاب إحياء العلوم، طبعة عثمان خليفة سنة **1933**.

أوربا وأمريكا في القرن التاسع عشر، وانتشر إنشاء هذه الدور في القرن العشرين وعمَّت في بعض البلاد منذ سنوات قلائل[3].

ولكن الشيء الجديد هو أن مدرسة التحليل النفسي حاولت أن تدلل على أهمية تلك السنوات تدليلا أقرب ما يكون إلى التدليل العلمي القائم على الملاحظة والاستقراء، كما حاولت أن تبين لنا القوى الفعالة في حياة الطفل منذ نشأته وكيف تتطور، وكيف تعين شخصيته عن طريق تفاعلها مع محيطه المباشر.

وأهم قوة فعالة في حياة الطفل منذ ولادته، في نظر فرويد وأتباعه هي الغريزة الجنسية[4] الفطرية فيه[5]. وترى مدرسة التحليل النفسي أن هذه الغريزة تتخذ مظاهر مختلفة في أطوار متعاقبة منذ الولادة إلى نهاية الخامسة من العمر. وأهم هذه المظاهر وآخرها (من نهاية سن الثالثة إلى الخامسة) اتجاه الطفل جنسيًا نحو أمه إن كان ذكرًا، ونحو أبيه إن كان أنثى.

---

(3) عممت هذه الدور في روسيا منذ سنوات. وهناك محاولات لتعميمها في بعض البلاد الأخرى. وقد أوصى الكتاب البيض الخاص بتنظيم التعليم في إنكلترا بعد الحرب الذي صدر في سنة **1943** بتعميم دور الحضانة **Nurseries** بحيث تتسع لكل طفل في إنكلترا يتراوح عمره بين الثانية والسادسة. وفي مصر بدأ نشاط من جانب بعض الهيئات الاجتماعية بإنشاء دور من هذا النوع منذ سنة **1940**، كما بدأت وزارة المعارف منذ سنة **1943** بإنشاء فصول حضانة ملحقة ببعض رياض الأطفال.

(4) يذكر فرويد قوة فطرية أخرى هي غريزة الموت أو الفناء **Dealth Instinet** ويعتبرها أقل أثرًا من الغريزة الجنسية (أو غريزة الحياة) في تشكيل شخصية الطفل. وعن غريزة الموت تنبعث مظاهر القسوة والشدة التي تشاهد في الأطفال الصغار مثلا عندما يقتلون الحشرات أو يخنقون الطيور الصغيرة.

وليس هذا الاتجاه في نظر مدرسة التحليل النفسي بالأمر البسيط، بل إنه معقد كل التعقيد، إذ في الوقت الذي يحب الطفل فيه أمه، يشعر بالغيرة الشديدة من أبيه، بل ويكرهه لأنه ينافسه في حب أمه؛ وهو أيضا يحب هذا الأب لعطفه عليه، ويعجب بقوته وقدرته، ويتخذه مثلا أعلى له يرنو لأن يكون على شاكلته. ويتكون من هذه الانفعالات المختلفة والمشاعر المتناقضة ما تسميه مدرسة التحليل النفسي بمركب أوديب **Oedipus Complex** الذي سرعان ما يكبت ويبعد عن شعور الطفل، فيسقط في عقله الباطن، ويصبح بذلك عقدة ذات أثر كبير في تحديد سلوكه، ليس فقط إبان طفولته، ولكن في أثناء حياته كلها بعد ذلك. وقد وجهت انتقادات كثيرة إلى هذا الرأي، وصلت إلى درجة اللوم بل والاستنكار من بعض العلماء وكثير من الناس خصوصاً عند أول طلوع فرويدي عليهم[6]. وكان هذا الرأي سببًا رئيسيًا من الأسباب التي انشق عليه من أجلها اثنان من أخلص أتباعه هما آدلر **Adler**، وقد كون لنفسه مدرسة خاصة سماها علم النفس الفردي **Individual Psychology** ويونج **Jung** الذي أنشأ مدرسة أخرى سماها علم النفس التحليلي **Analytical Psyehology**. وأهم المدرستين الأخيرتين من ناحية تفسير نشأة الطفل، هي مدرسة علم

[6] يمكن للقارئ أن يرجع إلى كتابه التحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي **Psycho-analysis and Social Psychology** تأليف وليم مكدوجل **W. Me'Dougall** الذي ينتقد فيه آراء فرويد، وقد أفرد في هذا الكتاب الباب الرابع لنقد مركب أوديب. كذلك يمكن الرجوع إلى البابين الأول والرابع من كتاب طرق جديدة في التحليل النفسي **New Ways of Paycho Analysis** تاليف كارن هورني **Kareu Horney**

النفس الفردي التي تعد النزعة للتفوق أو غريزة السيطرة هي حجر الزاوية في تكوين شخصية الطفل، أو ما يسميه آدلر بأسلوب الحياة أو نمط الحياة **Pattern of life**, **Style of lify**.

يرى آدلر أن الطفل الصغير يشعر بالنقص إزاء محيطه العظيم الذي يجد نفسه فيه، وهذا الشعور بالنقص يثير الترعة للتفوق والسيطرة والتحكم عنده. ويحاول الطفل أن يوفق بين ذاك الشعور وهذه النزعة، ويتدخل في هذا التوفيق عوامل كثيراً جدا منها كون الطفل سوياً من الناحية العضوية، أو ناقصا، أو مصابا بعاهة، ومنها نوع المعاملة التي يلقاها من والديه، وحالة الأسرة الاجتماعية والمادية، ومعاملة الوالدين كل منهما للطفل، وكل منهما للآخر، وترتيب الطفل في الولادة، وغير ذلك. وينشأ من هذا كله تكوين أسلوب خاص من الحياة يسير عليه المرء منذ طفولته الأولى.

فالعاهة أو النقص العضوي، تزيد من شعور الطفل بالنقص، فيحاول أن يعوض عن ذلك بكفاح زائد للسيطرة والتفوق، قد يمكنه من التغلب على العاهة نفسها، وقد يقدره على التفوق في ناحية أخرى كإرهاف البصر عند الصم، أو السمع عند الأعمى، أو كالتفوق في النواحي اليدوية عند الأعرج، أو الظهور في النواحي العقلية عند المعتل الضعيف البنية، أو التفوق في النواحي الجسمية كالألعاب وغيرها عند من لا يملك قدراً كبيراً من الذكاء، وهكذا. وقد تضخم العاهة أو الضعف العضوي الشعور بالنقص عند بعض الأفراد فيتكون لديهم منذ طفولتهم

أسلوب من الحياة على شكل استكانة وذلة وانطواء على النفس، أو كراهية للمجتمع وحقد مستمر عليه.

وإن كانت معاملة الوالدين للطفل معاملة منطوية على القسوة والشدة، زاد شعور الطفل بالنقص إلى درجة كبيرة قد تؤدي به إلى أن يتخذ منذ حداثته أسلوب الانزواء في سلوكه، أو أسلوب الجموح والثورة على كل شيء: على منزله وقرنائه، ومدرسته، والنظام الاجتماعي مهما كان شكله ولونه.

وإن كانا والداه يعاملانه بالتدليل، فلربما يتكون أسلوب الحياة عنده على شكل أنانية، فلا يفكر إلا في نفسه وفي مصالحه الخاصة، وتحقيق رغباته الشخصية مهما تعارضت مع رغبات الغير، ومهما أدت إلى ضررهم، وقد يكون أسلوب الحياة الذي يتكون في مثل هذا الطفل المدلل أسلوب اعتماد وتواكل مستمر على والديه أو أحدهما، ويهين مثل هذا الأسلوب فيما بعد صلاته بغيره من الناس، فيتخذ له الصديق الذي يمكن أن يركن إليه ويعتمد عليه، ويتخذ له الزوج الذي يمكن أن يكون له سنداً قوياً في الحياة.

وليس هنا مجال شرح هذه المدرسة من مدارس علم النفس، وتبيان تأثير العوامل المختلفة – وما أكثرها – في الطفل الصغير منذ ولادته، وما ينشأ عن ذلك من شتى أساليب الحياة وأنواعها. ولكن ما يهمني أن أذكره عن هذه المدرسة أنها متفقة مع مذهب التحليل النفسي في أهمية السنوات الأولى من حياة الإنسان، من حيث أنه يتكون في أثنائها

نمط الحياة الذي يعين سلوك الإنسان ويحدده، والذي يمكن أن نقول عنه أنه نواة شخصيته.

والفروق بين مدرسة فرويد ومدرسة آدلر فروق أساسية وكثيرة، تتعدى اختلافهما في نوع القوة الرئيسية في حياتنا التي يصدر عنها كل أو جُل نشاطنا وطاقتنا الحيوية، والتي لها أكبر الأثر في تكوين شخصياتنا، وتحديد اتجاهاتنا في الحياة، والتي في الغالب ترجع إليها صحتنا النفسية بل والجسمية إلى حد ما، فهذه القوة في نظر فرويد هي الغريزة الجنسية التي يروى أنها تظهر فعالة منذ ولادة الطفل، بينما هي غريزة السيطرة عند آدلر، الذي يرى أيضا أنها تظهر فعالة نشيطة منذ وجود الطفل في الحياة، وتؤثر إلى حد كبير في تحديد أسلوب الحياة للإنسان.

ويكفي أن يطلع القارئ على أحد مؤلفات فرويد وأحد مؤلفات آدلر، لكي يدرك البون الشاسع بين مذهبهما[7]. إنه يستطيع لأول وهلة أن يدرك عمق آراء فرويد مقابل سطحية آراء آدلر، وتعقيد مذهب التحليل النفسي مقابل بساطة مذهب علم النفس الفردي، ومبالغات فرويد وخصوصا بعض أتباعه[8]، مقابل شيء غير قليل من المعقولية والاتزان التي يعرض بها آدلر آراءه.

---

[7] يمكن أن يرجع القارئ إلى كتاب محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي لمؤلفه سيجموند فرويد –
Introductory Leclures on Psychoanalysis – by Sigmund Freud

وإلى كتاب فهم الطبيعة البشرية لمؤلفه الفرد آدلر
Understanding Human Nature. By Alfred Adler

[8] أضرب مثلا لذلك ميلني كلاين **Melanie Klein** كما يتبين من كتابها التحليل النفسي للأطفال **The Psycho–analysis of Children**

ومن حسن الحظ أن مؤلفة هذا الكتاب، برغم من أنها ابنة فرويد، لم تثر كما سبق أن ذكرنا افتراضات كثيرة، وتأملات نظرية مختلفة خاصة بالعلاقة بين الطفل ووالديه، مثل تلك التي تجدها كثيراً في مؤلفات فرويد وأتباعه. بل إنها حاولت أن تصف هذه العلاقة وصفاً بعيداً عن مبالغة مدرسة التحليل النفسي؛ ولذلك أتى كلامها عنها وشرحها لأثرها في حياة الطفل وتكوين شخصيته، معقولا إلى حد غير قابل للجدل.

ويمتاز هذا المؤلف الصغير عن غيره من الكتب الكثيرة التي وضعت في مذهب التحليل النفسي، بأنه كتاب عملي ومعقول، وضع عن الطفل، والطفل فقط[9] وعن نمو غرائزه وتطورها في مرحلة الطفولة المبكرة، وأثرها في تكوين شخصيته. وعن كيفية تأثير هذه الشخصية في سلوك الطفل بعد أن يجتاز السنوات الخمس الأولى. كما أنه بين للمربين الطريقة المثلى التي يجب أن يسيروا عليها في معاملة أطفالهم. فحاولت أن تبين الضرر الكبير الذي ينجم عن استعمال الشدة والقمع والضغط المستمر لغرائز الطفل، كما حاولت أن تشرح أيضاً الضرر الناتج عن إطلاق العنان لتلك الغرائز.

واستشهدت المؤلفة بأمثلة واقعية من الحياة لتزيد آراءها إيضاحاً. وارتأت ضرورة اتخاذ طريقة وسطى بين القمع الشديد ومنح الحرية

---

[9] يستطيع من يدرس هذا الكتاب، وكتاب التحليل النفسي للأطفال لمؤلفته مليني كلاين الذي أشرنا إليه في هامش صفحة **11** أن يتبين الفرق الكبير بينهما، ويمتاز كتاب "أنا فرويد" على كتاب زميلتها في اتزانه وبعده عن المبالغة، بالرغم من أن المؤلفتين تنتميان إلى مدرسة التحليل النفسي.

الزائدة للطفل، فاقتربت بذلك من رأى المدرسة الأرثوذكسية في علم النفس عن معاملة الطفل. وبددت بذلك الرأي الخاطئ المسيطر على كثير من الأفهام، أن مدرسة التحليل النفسي إنما تنادي بإعطاء الطفل (بل والراشد أيضاً) حرية لا حد لها في إشباع غرائزه وخصوصاً الغريزة الجنسية، ذلك الرأي الذي تسبب في انتشاره بعض المغالين من أتباع فرويد، والذي كون لمدرسة التحليل النفسي جميعها أعداءاً كثيرين، قاسى فرويد من هجماتهم عليه، ولذعاتهم إياه، متاعب وآلاما كثيرة.

إن هذا الكتاب ليؤكد لنا ضرورة العناية بالطفل منذ ولادته وأخذه بالتربية القويمة المستقيمة، ووقايته من أنواع الصراع الخطير الذي قد يسبب له الشقاء والعذاب طول حياته. إنه ليؤكد لنا ضرورة المبادرة بعلاج الطفل إذا بدت عليه مظاهر أية مشكلة من المشكلات، قبل أن يستفحل أمرها ويتغور أثرها، ويتعذر علينا علاجه منها. إنه ليبين لنا ضرر العطف المبالغ فيه على الطفل، وضرر إهماله وحرمانه من حاجة تعد أهم حاجاته، وهي الشعور بعطف الوالدين عليه، واهتمامهما بأمره، وخصوصاً عطف الأم واهتمامها بشأنه في حياته الأولى.

إنه يعطينا فكرة طيبة عن كيف نربي الطفل تربية جنسية منذ ولادته، ينشأ بسببها سليما في نفسيته، خالياً من أنواع الشذوذ التي يعاني الكثيرون منها ما يعانون من شقاء، ويعاني غيرهم كثيراً من المتاعب بسببهم.

إنه يبين لنا أن الطفل كائن ينمو، ليس فقط في جسمه ومداركه العقلية، بل في نفسه أيضاً، وأنه يمر بأدوار خاصة، فلا ينبغي لنا أن نستعجل نموه، فننقله من دور إلى آخر قبل أن يحين موعده، وإلا وقف نموه سريعاً، وحل به الشذوذ، وأصابه الضنى والإرهاق، حاله في ذلك حال رجل يستعجل قطع مسافة معينة، فيعمل على أن يسيرها في وقت أقل من الوقت الذي يتناسب مع قوته وصحته، وبذلك ينهك نفسه، ويتعرض نتيجة لعجلته إلى أمراض وأضرار كثيرة وخطيرة. كذلك لا ينبغي لنا أن نجعله يلبث في دور خاص من أدوار نموه مدة أطول مما يجب. وإلا نشأ فرداً ناقصاً في نموه، لا يستطيع أن يهيىء نفسه لمطالب الحياة وظروف المجتمع، ولا يتمكن من أن يتصرف تصرفاً سوياً في شئونه الخاصة والشئون الاجتماعية، وبذلك تزدحم حياته بالمشكلات والمصاعب.

ثم إنه يبين لنا كيف يمتص الطفل الصغير جزءاً من سلطان والديه ونفوذهما عليه وكيف تشرب نفسه بهذا السلطان، فيصبح جزءاً من كيانه، يسيطر على أعماله وأفكاره ويصبح كأن في نفسه قوة تهيمن عليه دون أن يشعر بها في الغالب، وتوجهه هنا وهناك، وتعاقبه إن أساء التصرف، وعمل بما لا ترتضيه. وقد يشتد عقابها له، فيصيبه من جرَّاء ذلك أمراض نفسية وجسمية.. تلك القوة هي ما يطلق عليها التحليل النفسي اسم "الذات العليا" **Soper-ego** أو ما يمكن أن تسمى بالضمير **Conscience** الذي يتخذ له شكلا تبعاً لنوع المعاملة التي يعامل بها الوالدان الطفل.

والكتاب يؤكد لنا باختصار أهمية التربية المنزلية الأولى التي تفوق في أثرها أي نوع من أنواع التربية التي يتلقاها الطفل بعد ذلك. ومن أجل هذا أرى من الضروري أن يدرس كل فتى وفتاة تربية الطفل ونفسيته، دراسة تمكنهما من أن يكونا أبوين صالحين للأطفال. قادرين على أن ينشؤهم تنشئة سليمة على قدر المستطاع.

إني أنصح كل أب وأم، وكل معلم، وكل من له صلة بتربية الأطفال ومعالجتهم في المنازل والمعاهد التربوية المختلفة، أن يقرأوا هذا الكتاب بإمعان وترو، حتى يستشعروا المبادئ الأساسية التي يجب أن تقوم عليها معاملة الأطفال، فيسيروا في هداها حتى ينجحوا في مهمتهم السامية، مهمة تخريج نشء صالح سعيد يكوِّن مجتمعاً صالحاً سعيداً.

محمد كامل النحاس
28 **يناير** 1947

المحاضرة الأولى

نسيان الطفولة ومركب أوديب

كلنا يعلم أن المعلمين لا يزالون ينظرون إلى التحليل النفسي نظرة يشوبها كثير من الريبة والشك؛ ولذلك عندما اعتزمتم يا معلمي بيوت الأطفال في فيينا (Hort) [10] أن تتلقوا عني سلسلة بسيطة من المحاضرات،

فلابد أنكم شعرتم بعض الشعور بأن معرفة ألصق وأعمق بهذا العلم الجديد، قد تمدكم ببعض المعونة في القيام بمهنتكم الشاقة. وبعد أن تستمعوا إلى المحاضرات الأربع الآتية، فإنكم سوف تقررون بأنفسكم ما إذا كنتم قد ابتعدتم كثيراً عن ذلك الهدف الذي رسمته لكم، أو إذا كنت قد استطعت أن أحقق لكم بعض ما كنتم تتوقعونه على الأقل.

---

(10) وضعنا كلمة هورت **Hort** بالألمانية إذ لم نجد مقابلا لها في العربية وعربناها بيت الأطفال. وفيما يلي فقرة من وصف لبيت الأطفال يبين ماهيته والغرض منه "الهورت نوع من رياض الأطفال ولكنه أسس للصغار من سن السادسة إلى الرابعة عشر بنوع خاص أما رياض الأطفال فهي تتلقى الأطفال حتى سن السادسة أو حتى سن المدرسة والأطفال الذين يؤمون الهورت هم أبناء الآباء والأمهات الذين يضطرون للعمل خارج منازلهم. ويأتي الأطفال نهاراً للهورت ثم يرجعون في المساء إلى أهليهم. وفي الهورت يعدون واجباتهم المدرسية، ويشغلون في أعمال خفيفة، أو يشتركون في ألعاب جماعية ويخرجون مع موظفي الهورت في رحلات خلوية". (المعرب)

ولست أشك مطلقاً في أن ليس عندي أي شيء جديد أقدمه لكم في ناحية خاصة. فأنا واثقة من فشلي إذا ما حاولت أن أخبركم شيئاً عن سلوك أطفال المدارس وأطفال هذه البيوت، لأن مركزكم معلمين عاملين فيها، يجعلكم أقدر على فهم ذلك السلوك مني، فكم من مادة هائلة تمر بين أيديكم في أثناء عملكم اليومي، فتكسبكم معرفة تامة بجميع الظواهر التي تقع نصب أعينكم: من الأطفال المتأخرين جسمياً وعقلياً والعاندين، والخانعين والكذابين، والذين أسيئت معاملتهم، إلى الأطفال القاسين، والشرسين، والمجرمين. ومن الأفضل ألا أحاول إعطاءكم تقريراً كاملا عن تلك الظواهر. إذ أنكم قادرون على أن تكشفوا لي عن كثير من النقص فيه.

ولكن للظروف نفسها، التي تجعل لديكم علماً تاماً بالظواهر، مآخذها ومثالبها، فأنتم مضطرون بصفتكم مربين للأطفال في تلك البيوت – كما كنتم معلمين في المدارس وفي رياض الأطفال – لأن تكدوا وتعملوا دون انقطاع. والحركة والحياة في صفوفكم (فصولكم)، أو في مجموعات أطفالكم يتطلبان استنباطاً مستمراً من جانبكم إنكم مضطرون لأن تحذروا الأطفال، وتقوموا بتدريبهم، وتستخدموهم، وتسدوا إليهم النصح، وتعلموهم. وقد يستاء رؤساؤكم عظيم الاستياء لو أنكم ارتأيتم على حين فجأة، أن تنسحبوا إلى موقف تقومون فيه بملاحظة الأطفال مجرد ملاحظة. ولذلك فمع أن مهنتكم تجعلكم عاجزين عن أن ترتبوا الظواهر التي تقع أمام أعينكم وتنظموها تنظيما حكيما،

وعن أن ترجعوا مظاهر سلوك الأطفال إلى أصولها الحقيقة وأسبابها الرئيسية، مع ذلك، فإنكم مضطرون لأن تعالجوها.

وفضلا عن أن الفرص لا تواتيكم لكي تقوموا بملاحظات هادئة غير مقطوعة، فليس لديكم القدرة على القيام بتصنيف سليم وتفسير صحيح للمادة المائلة أمامكم، لأن مثل هذا التصنيف والتفسير يتطلب نوعاً خاصاً من المعرفة دعونا نقرض مؤقتا أن واحداً منكم أيها المستمعون، مهتم اهتماماً خاصاً بمعرفة الأسباب التي من أجلها يقاسي أطفال معينون في مجموعة خاصة من التهاب العين، أو من لين العظام.. إنه يعلم أن هؤلاء الأطفال يأتون من بيوت فقيرة رطبة؛ ولكن العلم بأصول الطب، هو وحده الذي يستطيع أن يبين تماماً الكيفية الخاصة التي بها نؤثر رطوبة الجدران في منزل الطفل فتسبب مرضه؛ ولربما يركز واحد آخر اهتمامه في الأخطار التي يتعرض لها أبناء المدمنين على الخمر عن طريق الوراثة؛ ففي هذه الحالة لابد له من أن يدرس قوانين الوراثة، ومن يرغب في الكشف عن الصلة بين التعطل وضيق المساكن من جهة، وبين الأطفال المهملين من جهة أخرى، يجب أن يدرس علم الاجتماع.

ولكن في إمكان المعلم الذي يرغب في أن تزيد معرفته بالأمور العقلية المسببة لكل الظواهر المختلفة التي ذكرتها لكم من قبل، والذي يرغب في تفهم الفروق بينها، وتتبع تطورها البطيء في حالة الطفل الواحد – في إمكانه كثيرا أن يقف على ذلك عن طريق علم التحليل النفسي الجديد.

وأرى أن الفوائد العملية التي تجتنى عن طريق المعرفة المتزايدة، ذات أهمية خاصة لمن يزاولون العمل في بيوت الأطفال لسببين: فبيت الأطفال الذي يفتح أبوابه لجميع الصغار المعرضين لأخطار مختلفة داخل منازل والديهم، وخارجها عندما لا يكونون في المدرسة، هو أحدث مؤسسة تربوية في مدينة فيينا. إنه مدين بوجوده للعقيدة الراسخة في أن المعهد الذي يمكن أن يؤثر أفضل التأثير وأصلحه فيعالج إهمال الأطفال في أثناء أدواره الأولى، وما يترتب عليه من تكوين سلوك غير اجتماعي فيهم – هو بيت الأطفال، الذي يشبه محيط المدرسة أو منزل الوالدين، ولو أنه طليق من قيودهما ويسود الشعور بأن مثل هذا العلاج يكون أمراً شاقاً لو أننا تأخرنا في القيام به بعد تلك الأدوار الأولى، وذلك بعزل البالغين الذين يكون قد طال أمد إهمالهم، أو البالغين المجرمين الذين غالباً ما يصبحون في أعمارهم المتأخرة هذه، بعيدين عن أن تتحكم فيهم الخبرات التربوية ولكن ليس هناك الآن من إلزام للأطفال كيما يحضروا إلى الهورت.

حقيقة يستطيع أولو الأمر أن يلزموا الوالدين بأن يرسلوا أطفالهم إلى المدارس كيما يتلقوا العلم، ولكن إئتمانهم الهورت على طفلهم الذي لا يحيطونه في منازلهم إلا بأتعس الظروف وأنحس الأجواء، فإنه في الوقت الحاضر أمر يتبع تقديرهم الشخصي. ولذلك كان على بيت الأطفال أن يثبت وجوده باستمرار بأن يعمل دائماً للحصول على نتائج باهرة كي يتسنى إقناع الآباء بجدارته، كما كان إقناعهم المرة تلو المرة بجدوى التلقيح أمراً ضرورياً، قبل أن يصبح التطعيم إلزاميا.

بيد أن المربي في بيت الأطفال يواجه صعوبة أخرى من نوع خاص متصلة بوظيفته، فهو مضطر لأن يعامل أطفالا حصلوا على حلقات كاملة من خبرات وتجارب عميقة إلى حد ما، ومروا بأيد كثيرة من المربين يجب أن يعرف أن هؤلاء الأطفال لا يستجيبون إطلاقاً – في أول اتصاله بهم على الأقل – لشخصيته الحقيقية وسلوكه الواقعي تجاههم. إنهم يأتون ومعهم نوع من العقلية قد تكوَّن من قبل. وإنهم ربما يتصلون بالمدرس بشيء من الشعور بعدم الاطمئنان، أو التحدي، أو بشعور من الحذر قد أكسبتهم إياه خبراتهم الشخصية بغيره من الكبار، وعلاوة على ذلك فإن حياة الطفل في بيت الأطفال ليست إلا جزءاً متمما لحياته في المدرسة. ويسير الهورت على طرق أكثر حرية وجدة من تلك التي تسود في معظم المدارس؛ ولذلك فإن مستوى السلوك الذي تتطلبه المدرسة من الأطفال، وتعمل على أن يسموا إليه، كثيرا ما يكون عائقاً لبيوت الأطفال عن تحقيق أهدافها.

ومن ذلك نرى أن مركز المربي في الهورت لا يمكن مطلقا أن يحسد عليه؛ ففي كل حالة تقريباً، يواجه واجباً شاقاً يتطلب منه عملا مستقلا وتفهماً خاصاً. ولكنه لسوء الحظ، يظهر متأخراً في حياة الطفل، عاملا ومربياً غير مستقل بوظيفته.

ونحن نجاوز الإنصاف للمدرسة إذا نظرنا إلى وظيفة المعلم فيها كما لو كانت أحسن حالا من وظيفة المربي في بيت الأطفال فالواقع أن الكثيرين من المعلمين يشكون من أنهم قلما يتناولون الطفل خاما. فمثلا

يجدون أن من الصعب جداً عليهم تعويد الأطفال في السنوات الأولى بالمدارس الأولية أن يسلكوا اتجاهاً صحيحاً وجدياً نحو المعلم والدراسة، إذ أنهم كانوا يعيشون في جو من المرح واللعب في رياض الأطفال وصفات مكتسبة من الرياض لا تلائم الجو المدرسي.

ومع ذلك، فلو رجعنا إلى معلمات الروضة اللائي – تبعاً للرأي الذي ذكرناه الآن – يجب أن يكن في وضع يحسدن عليه، إذ أنهن يعالجن مادة جديدة، ويطأن أرضا لم يطأها أحد قبلهن، فإننا نعجب حين نسمع شكواهن من أن الأطفال من سن الثالثة إلى سن السادسة الذين يعالجنهم في الروضة – حتى هؤلاء الأطفال ليسوا إلا رجالا معدين؛ فكل طفل منهم يأتي مزوداً بمجموعة من الخصائص، ويستجيب إلى سلوك معلمة الروضة ونظامها على طريقته الخاصة تماما. إنهن يكشفن في كل طفل عن تكوينات محدودة تمام التحديد، من آمال، ومخاوف، ومكاره، وأفضليات، ونوع من الغيرة خاص به، وشكل معين من الحنو. وحاجة للعطف والحب، أو رغبة عنهما. فليس الحال هنا حال معلمة تؤثر بشخصيتها في كائن لم يتكون بعد، وإنما تعالج شخصيات صغيرة معقدة ليس من السهل التأثير فيها.

فالمعلمون إذن سواء أكانوا في بيوت الأطفال أم في الرياض، يعملون في مواقف متماثلة في الصعوبة، ومن الواضح أن الإنسان يتطور ويتكون قبل الوقت الذي نتصور أنه يتكون عادة فيه ولكي نتتبع خصائص الأطفال وطباعهم إلى أصولها ومنابعها الأولى – تلك الخصائص

والطباع التي تسبب الكثير من المتاعب للعلمين – يجب أن تمتد بحوثنا في ذلك، إلى العهد السابق لدخول الطفل المعاهد التربوية؛ يجب أن تمتد إلى أولئك المعلمين الذين كانوا في الواقع المعلمين الأول في حياة الطفل، أي إلى العهد الذي يسبق سن الخامسة، وإلى والديه.

وقد يظهر لكم أن واجبنا أصبح بسيطاً ميسوراً، فبدلا من ملاحظة السلوك اليومي للأطفال الأكبر سنا في المدارس أو في بيوت الأطفال، فإننا نحاول أن نجمع منهم مادة وحقائق، تتصل بانطباعاتهم أو ذكرياتهم عن أولى سنوات حياتهم.

ولأول وهلة يتراءى لنا أن هذا الأمر غير عسير؛ ففي امتزاجكم مع الأطفال الذين عهد إليكم برعايتهم، لابد أنكم حاولتم أن تكونوا بينكم وبينهم صلات سامية وصريحة. والآن ستجدون أن هذه الصلات على جانب كبير من الفائدة لكم، إذ تجعل الطفل مستعداً لأن يخبركم بكل شيء إذا بدأتم بمساءلته.

وإني أنصحكم جميعا أن تقوموا بهذه المحاولة، ولكني أستطيع أن أقول لكم مقدماً إنها لن تؤدي إلى أية نتيجة. إن الأطفال لا يعطون معلومات عن الماضي، إنهم يتحدثون من تلقاء أنفسهم عن حوادث الأيام والأسابيع القليلة الماضية، وعن عطلاتهم التي أمضوها في جهات غريبة، وعن عيد ميلادهم السابق، أو عن عيد ميلاد قديس. وقد يستطيعون أن يخبروكم عن حفلات عيد الميلاد للسنة الماضية. ولكنا نجد أن ذكرياتهم

نقف عند هذا الحد. أو على كل حال نلقاهم عاجزين عن أن يقولوها للغير.

إنكم ستقولون ولا شك، إننا كنا مؤمنين كثيراً بعقيدتنا في قدرة الطفل على تذكر حياته الماضية ولكن كان يجب أن نعرف أن الطفل لا يفرق بين ما هو وما هو خال من الأهمية في حياته الماضية. وبناء على هذا، فإنكم ترون أن الأمر يكون أكثر معقولية، وأفضل في الوصول إلى نتائج مثمرة، لو أننا عهدنا بذلك البحث الخاص في أولى تجارب الطفل وخبراته، لا للطفل نفسه، وغنما للراشد المقدر لأهمية مثل هذا البحث.

وإني أنصح لكم عن إيمان أن تقوموا بتنفيذ هذا الاقتراح الثاني، ولكني أعلم أنكم ستدهشون حين تجدون أن ليس لدى الصديق الذي تلجأون إليه، والذي ولا شك، يبذل جهده عن طيب خاطر في مساعدتكم، ليس لديه ما يحدثكم عنه سوى النزر اليسير. سيظهر لكم أن ذكرياته التي يستعيدها بتعقل وتدبر ترجع – بقليل من الفجوات – إلى السنة الخامسة أو السادسة فقط من عمره. إنه يستطيع أن يصف دراساته، وربما تذكر المنازل التي عاش فيها عندما كان في الثالثة أو الرابعة أو الخامسة من عمره، وعدد إخوته وأخواته وأسماءهم، وربما تذكر بعض الحادثات كنقله من بيت إلى آخر، أو بعض النازلات التي حلت به، ثم تقف الذكريات عند هذا الحد قبل أن تحصلوا على ما سعيتم إليه، أعني الدلالات على كيف أدى تطوره ونموه في أثناء تلك السنوات الأولى إلى تكوين شخصيته وميزاته الخاصة.

ولكن يجب أن تعلموا أن هناك سببا لخيبة الأمل الجديدة هذه؛ فمن الواضح أن الحوادث التي نبحث عنها، والتي لعبت دوراً مهما في نمو شخصية الفرد، كانت من غير شك ألصق الحوادث بحياته. إنها خبرات وتجارب يحرص عليها الفرد بصفتها أخص متاع وملك له، ولذلك يظهر عليها وحده، ويحجبها ويخفيها عن أعزائه، كأنها أمور مخجلة تشعره بالخزي والعار. وعلينا إذن أن نفكر في هذا الأمر الماثل أمامنا ونتدبره، ونعمل على أن نستمد الحقائق من الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يعطينا المعلومات المتصلة بالحالة كلها. أي أن الواجب على كل باحث أن يبحث في نفسه هو. وعلينا يقينا أن نعتمد على كفاءة الراشد السوي في تذكر مختلف الأشياء، وعلى اهتمامه بالبحث، واستعداده لأن يحطم كل تلك الحواجز التي أقامها الشعور بالخزي والخجل، والتي تقف سداً منيعاً في الكشف عن نفسه للغير.

ولكن مهما ركزنا انتباهنا في هذا البحث، وحاولنا قدر استطاعتنا أن نكون جد صريحين في الكلام عن متضينا، فإن النتائج التي نصل إليها لن تكون إلا قليلة الجدوى إلى حد كبير. لن ننجح إذن في تفسير أولى السنوات من حياتنا، وفي جمع سلسلة كاملة من ذكرياتنا عن ذلك العهد. قد نستطيع حقا أن نربط بعض الحوادث إلى سن معينة تختلف كثيراً باختلاف الأفراد، فهي الخامسة عند الكثيرين من الناس، وهي الرابعة عند البعض، والثالثة عند البعض الاخر. ولكن الحياة قبل ذلك، لدى كل فرد منا، ليست سوى فراغ عظيم، أو خليج لا يظهر فيه غير حوادث فردية منفصلة عن محيطها، ولذلك تظهر عند التأمل فيها

مليا كان ليس لها من معنى، وعلى ذلك فليس لها طبعا أية قيمة. فملا قد لا يتذكر الشاب شيئا عن السنوات الأربع الأولى من طفولته، اللهم إلا منظراً قصيراً على سفينة عندما مدَّ الربان في زيه الجميل ذراعيه ليرفعه فوق منصة صغيرة، بينما كان في الوقت نفسه يقاسي أفظع صراع عقلي، ويعاني أعنف لطمات القدر، كما يتبين ذلك من مساءلة أشخاص آخرين كانوا معه حينذاك ودونك مثلا آخر، فتاة صبغت طفولتها بحياة وجدانية مليئة بحوادث ووقائع قوية، ولكنها لم نعد نذكر منها شيئاً سوى ذكرى واضحة عن نفسها وقد وضعت في عربة صغيرة، وعن لفتتها إلى الوراء لترى مربيتها وهي تدفع العربة بيدها.

إنكم تسلمون الآن بأننا نواجه مجموعة من حقائق متناقضة إلى درجة تثير الدهشة؛ فنحن من ناحية نعرف من ملاحظاتنا لصغار الأطفال ومن التقارير التي يقدمها ذوونا عن طفولتنا الخاصة، أن الطفل يسلك ويتصرف في ذلك العهد تصرفا ذكيا نشيطا، وأنه يظهر حبه وبغضه، ويأخذ بيد نفسه في كثير من المسالك العامة كما لو كان مخلوقا معقولا، ومن جهة أخرى نجد أن ذلك العهد قد زال وانمحى من ذاكرته، أو ربما ترك وراءه آثارا ناقصة مبتورة إلى حد كبير. والكائنات البشرية، كما يدلل المربون والمعلمون في المدارس ورياض الأطفال، يظهرون على مسرح الحياة، بعد تلك السنوات القلائل الأولى، شخصيات صغيرة كاملة التكوين، وبالرغم من ذلك تسلك الذاكرة سلوكها كما لو كان الاحتفاظ بآثار ذلك العهد الذي يكون كل فرد فيه قادراً على أن يستقبل بعض انطباعات خاصة، وعليه أن يحتفظ بها ويتشربها، والذي فيه

يتكشف التطور المعقد للفرد عن فرديته وشخصيته – أقول كما لو كان الاحتفاظ بذلك العهد أمراً ليس بذي بال.

لقد انخدعت المدرسة الأرثوذكسية في علم النفس بالتشابه بين الأشياء، فعلماء هذه المدرسة يعتبرون أن مادة علمهم هي ذلك الجزء من الحياة الداخلية للإنسان الذي يدركه هو فحسب. ولذلك كان حقاً عليهم أن يقللوا كثيراً من أهمية السنوات الأولى من الحياة التي تظل في العالم المجهول.

لقد كان التحليل النفسي أول ما واجه ذلك التناقض وعالجه؛ فإليه يرجع الفضل في التدليل على أن وراء الأخطاء اليومية للإنسان، مثل نسيانه، وإضاعته للأشياء، والحادثات المختلفة، وأخطائه في القراءة، إلى غير ذلك، تقع رغبات غائبة غرضية. وكانت كل هذه الحوادث تفسر من قبل، دون تفكير ونقص، بأنها نتيجة عدم الانتباه أو التعب أو مجرد الصدفة. وعن طريق البحوث التي أجريت على ضوء التحيل النفسي لهذه الحوادث، قام الرأي القائل بأننا لا ننسى عادة أي شيء، إلا ذلك الذي نرغب حقا في نسيانه لسبب معقول قد يكون مجهولا لدينا تماما. وعلى ذلك لا يقنع علماء التحليل النفسي بالتفسيرات العادية التي تعلل وجود تلك الفجوة في الذاكرة الخاصة بعهد الطفولة، بعد أن قاموا ببحوثهم فيها إنهم يعتقدون أن مثل هذه الظاهرة الغريبة من النسيان، لا يمكن أن تحدث من غير أن يكون وراءها دافع عظيم القوة، إن ذلك الغموض الذي يكتنف السنوات الأولى من الحياة، وتلك الموانع التي

تقف حجر عثرة في طريق الجهود التي تبذل للوصول إلى تفسير مباشر للظاهرة، وهذا كله حدا بعلماء التحليل النفسي لأن يتوقعوا أن هناك شيئا مهما قد اختفى وانزوى في تلك الحقبة من الحياة.

وعلى نفس الوتيرة تماما، يتوقع اللص من وجود قفل خاص دقيق الصنع، مغلق على خزانة عسير عليه معالجتها، إن جهوده في فتحها، ستدر عليه أعظم الخير، وتجزيه أكرم جزاء، إذ قلما يتخذ الناس مثل هذه الاحتياطات لكي يغلقوا خزائنهم على توافه الأشياء.

بيد أني لن أحاول الآن أن أصف لكم الطريقة التي بها نجح التحليل النفسي في الوصول إلى هدفه، وهو الكشف عن ذكريات الطفولة واستعادتها. إن وصف طريقة التحليل النفسي يتطلب وحده وقتا أطول بكثير من الوقت المهيأ لنا، لذلك يجب أن نرجئ الدراسة المفصلة لتلك الطريقة، والقيام بالفحص عنها أكثر مما ذكرت لمنهج آخر من المحاضرات. وعلينا أن نهتم الآن اهتماما خاصا بمحتويات السنوات الأولى من الطفولة بالشكل الذي صاغها عليه التحليل النفسي ويجب أن أذكركم بأنه قد تم للتحليل النفسي ذلك، عن طريق تفسيرات الهنات الصغيرة التي وصفناها من قبل، وعن طريق تفسير أحلام الناس الأصحاء. وكذلك أيضا عن طريق إيضاح وتحليل الأعراض التي تظهر على المصابين بالعصاب.

إن التشكيل الجديد الذي قام به التحليل النفسي لسنوات الطفولة الأولى يصل إلى سن الرضاعة، عندما يكون كل ما يملكه الطفل

لا يتعدى أكثر من الصفات الموروثة التي يستقبل بها الحياة عند ولادته. وعلى ذلك يكون الرضيع في حالة، تصورنا خطأ، أنها الحالة نفسها التي يكون فيها عند التحاقه بالمعاهد التربوية. وليس لدينا إلا القليل الذي يمكن أن نقرره بشيء من الثقة، عن هذه المرحلة من الحياة. فالطفل الصغير الذي نواجهه فيها يشابه إلى درجة كبيرة، الحيوان حديث الولادة من كل الوجوه. اللهم إلا أنه يكون في حالة أنعس من حالة صغير الحيوان. فالحيوانات تعتمد على رعاية أمهاتها لمدة قصيرة فقط، تمتد على الأكثر إلى بضعة أسابيع. وبعد ذلك تتطور إلى مخلوقات مستقلة تستطيع، أن تعتمد على نفسها دون ما رعاية من أحد. ولكن الأمر يختلف تماما الاختلاف في حالة الآدمي الصغير؛ إذ أنه يبقى مدة سنة على الأقل معتمداً كل الاعتماد على أمه، حتى إنه ليهلك على التو، لو أنها توقفت عن رعايتها له. وحتى بعد مضى هذه السنة، فإن الطفل لا يصل إلى حالة يمكن أن يكون فيها مستقلا عنها. إنه ليعجز عن الحصول على طعامه، ولا يستطيع أن يقي نفسه ويحافظ عليها، ولا أن يتقي شر الأخطار من أي نوع كانت. نحن نعرف أن الكائن البشري يحتاج إلى حوالي خمس عشرة سنة من الرعاية، وبعد ذلك يستطيع أن يستغني عن حماية الكبار له، ويصبح بذلك فرداً مستقلا.

وهذا الاختلاف بين الكائن البشري والحيوان، في طول مدة اعتماد الأول على الغير، هو الذي يعين مآله ويوجه أقداره، إننا إذ تعرف أنه لا يحول بين الطفل وهلاكه في السنة الأولى من حياته إلا رعاية أمه له، وحنوها عليه. لا نستغرب إذا قررنا أن رعاية الأم هذه تبدأ تلعب

دوراً مهما جداً في حياة الطفل. إنه ليشعر بالأمن ما دام يدرك أن أمه بجواره، وأنه ليظهر اليأس في مشاعر من الألم والتبرح كلما بعدت عنه؛ إنه بحاجة إلى أمه لكي تشبعه من جوع؛ إنها تصبح ضرورة قصوى من ضروريات حياته.

بيد أن الصلة بين الطفل والأم سرعان ما تتعدى ما يمكن أن يفسر على أساس النزعة إلى المحافظة على حياته، إذ نلاحظ أن الطفل يريد أمه دائماً إلى جانبه، ويتشوق دائماً إليها حتى بعد أن يرتوي ويشبع، ويشعر بأنه في مأمن تام من الأخطار. ونحن نعبر عن هذه الصلة بقولنا إن الطفل يحب أمه. فاستجابة لحبها الرقيق له، وحدبها العطوف عليه، تتكون بينه وبينها صلة تستمر ولا شك في الاتجاه الذي تعينه غريزة المحافظة على الحياة عنده؛ ولكن تلك الصلة تصبح مستقلة عن هذه الغريزة بل وتتعداها أيضاً.

ويظهر لنا بسبب هذه الرابطة الرقيقة التي تربط الطفل بأمه، أنه قد تكاملت لديه جميع الفرص التي تساعده على أن ينمو جسمياً وعقلياً في هدوء وطمأنينة، وأنه يكون قنوعا كل القناعة، لو أن أمه لم تفعل شيئاً سوى أن تطعمه وترعاه وتحبه. ولكن سرعان ما يحين الوقت الذي تبدأ الحياة الخارجية، لأول مرة، وبشكل مزعج، تتدخل في الصلة بين الطفل وأمه. فالطفل الذي تعدى الآن سن الرضاعة، وترك السنة الأولى من الحياة وراءه، يبدأ فجأة يدرك أن أمه ليست ملكا له وحده فالأسرة التي لا يكون منها سوى عضو صغير وغير ذي بال، تتكون من أعضاء

آخرين: الأب، والإخوة، والأخوات، الذين يبدأ يشعر الطفل بهم على حين غرة، والذين يظهرون له على درجة من الأهمية في الأسرة، تماثل الأهمية التي يقدرها لنفسه، إنهم جميعاً يؤكدون حقهم في الاستئثار بالأم وامتلاكها.

ويسهل من هذا أن نفهم كيف يعد الطفل الصغير إخوته وأخواته أعداءاً له. إنه يصبح غيوراً منهم، ويود لو أزيحوا بعيداً عن طريقه، حتى يسترجع ثانية ظروفه الأولى التي تثير وحدها الرضى في نفسه. ويمكنكم أن تقنعوا أنفسكم بهذه الغيرة التي تمتلئ بها نفوس الصغار، بملاحظة سلوكهم عند ولادة طفل آخر. فقد سألت بنت صغيرة في الثانية من عمرها – وقد أراها أبوها، بشيء من الفخر، أخاها الوليد، متوقعاً أن تستشعر إزاءه السرور والإعجاب – سألت، "متى يموت ثانية"!، وذكرت لي إحدى الأمهات، أنها دائماً إذا ما أرضعت وليدها الصغير، يندفع إليها طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات، مسلحاً بعصى أو بأي شيء مسنن، وكانت تلاقي الأمرين في منعه من إلحاق الأذى بالرضيع. وليس هناك حصر لهذا النوع من الحوادث، وإننا لنسمع كثيراً عن الأضرار الجسيمة التي يسببها الأطفال في سن الثانية أو الثالثة لإخوتهم وأخواتهم الصغار، إذا ما تصادف أن يتركوا وحدهم دون رعاية الكبار.

ولدينا كل دليل على خطورة هذه الغيرة التي تنبعث عن الأطفال الصغار، إنها تصدر عن الدوافع والنزعات نفسها التي تصدر عنها غيرة الكبار، وإنها تسبب للطفل القدر من الآلام عينها التي نقاسيها نحن

الكبار، نتيجة للصدمات واللطمات التي تترنح بسببها صلاتنا بمن نحب ونهوى، إذا ما نافسنا فيه منافس.. والفرق الوحيد بين الحالتين ينحصر في أن الطفل مقيد في تصرفاته أكثر من الراشد. ولذلك فإن تحقيق دوافع الغيرة عنده لا يمتد إلى أبعد من أن يكون مجرد رغبات. إنه ليرغب في أن يبعد هؤلاء الإخوة والأخوات المزعجين؛ إنه قد يرغب في أن يصرعهم الموت، ولما يدرك بعد معنى الموت تماماً، فهو لا يفرق حتى سن معينة، بينه وبين السفر بعيداً.

وهذه الرغبة في فناء الإخوة والأخوات التي يشعر الطفل بها أمر طبيعي تماماً. وكلما زاد تقدير الطفل للاستئثار بأمه، زادت رغبته قوة ونشاطاً، وعلاوة على ذلك فإن اتجاه الطفل العقلي كله نحو إخوته وأخواته، هو في بادئ الأمر، اتجاه عدائي صرف. ويبدأ صراع عاطفي يضطرم في نفسه، عندما يلاحظ أن أمه التي تحب هؤلاء الإخوة والأخوات المشاكسين المتعبين، (وهو لا يستطيع أن يفهم كيف يكون هذا) تتطلب منه أن ينزع من صدره كل هاتيك الرغبات العدائية ضدهم، وأن يشاركهم فيها؛ بل وتحمله على أن يحبهم أيضاً. هنا بداية جميع المصاعب والمشكلات التي تظهر في العلاقات الوجدانية والعاطفية بين الإخوة والأخوات في الأسرة الواحدة.

وربما تبين لكم من ملاحظتكم الخاصة لكبار الأطفال، كيف أن "الحب العائلي" غالباً ما يمثل رغبة الراشد فقط في ضرورة وجود مثل هذا الحب، وكيف أن الصلات الحقيقية في الأسرة تختلف عن هذه الصلة

الخيالية. والدليل الناصع فوق ذلك، على صحة وصفنا للصلات في الأسرة، هو أن الغيرة بين الإخوة والأخوات تكون أقل بكثير مما وضحنا، إذا كانت الصلات بين الأطفال وأمهم ليست وثيقة. ففي أسر طبقات العمال، حيث لا تستطيع الأم أن تنشر ظلا وارفاً من الرعاية على أطفالها، نجد أن الحنو عند ولادة أطفال جدد يكون قليلا تبعاً لذلك. ومن ثم نلاحظ بين أطفال هذه الطبقات صلات من الحب والتعاطف أقوى بكثير من تلك الموجودة بين أطفال الأسر المتوسطة؛ ففي الأخيرة يرى كل طفل في إخوته وأخواته منافسين في ممتلك جد حقيقي ونتيجة لذلك تطغى الكراهية والغيرة – بشكل صريح أو خفي – على الصلات بينهم.

ولكن هذا الصراع العاطفي الذي يغمر الطفل تجاه إخوته وأخواته، ليس إلا مقدمة ضئيلة الضرر نسبياً لصراع عاطفي آخر، أكبر منه وأشد عنفاً؛ فليس الأخوة والأخوات بالمزاحمين الأوحدين الذين ينافسونه في الاستحواذ على أمه. فالأب أشد خطراً وأعظم أهمية ويلعب الأب دوراً مزدوجاً في حياة الطفل الصغير: يكرهه الولد منافساً له عندما يقوم بدور صاحب الحق الشرعي في امتلاك الأم، وعندما يسافر معها ويخرج بها، ويعاملها كأنها متاعه الخاص، ويصر على أن ينام معها وحده؛ ولكن من جهة أخرى، فإن الطفل يحب أباه ويعجب به، ويعتمد على معونته، ويعتقد في قوته وعلمه وعظمته. ولا يرغب في اكثر من أن يكون على شاكلته في المستقبل، وعلى ذلك تظهر في حياة الطفل المشكلة الشاذة الغريبة، وكأن ليس لها في أول الأمر من حل، وهي أن يحب الطفل شخصاً ويعجب به، وفي الوقت نفسه يبغضه ويتمنى موته. لقد

كانت المسألة في صلاته مع إخوته وأخواته، مسألة كبح لجماح رغباته الشريرة فحسب، كيما يرضي أمه. ولكن هنا ولأول مرة، نشهد عاطفة تصارع عاطفة أخرى، وانفعالا يناضل انفعالا آخر.. وأترك لكم أن تتخيلوا بأنفسكم المصاعب الأخرى التي يعانيها الطفل الصغير من جرَّاء هذا الصراع: الكمد من إلحاح رغباته الشريرة وقوتها، والخوف من انتقام أبيه منه، ومن فقدان عطفه وحبه له، وتصدع كل سلام ووئام في صلاته بأمه، وتعذيب ضميره له، وخوفه المتواصل من الموت، وسوف أتحدث عن هذا بتوسع في مكان آخر.

وقد تشعرون الآن أنه يكون لذيذاً حقاً أن نتبع هذا التطور العاطفي في الطفل الصغير، ولكنكم لا تدركون كيف يتصل هذا بعملكم الخاص. إن الأطفال الذين تعالجونهم أكبر سناً بكثير من الأطفال الذين وصفناهم. وهم قد تركوا وراءهم من زمن، تلك المرحلة من حياتهم التي كانوا فيها معتمدين الاعتماد كله على أمهم، وكذلك تباعد ما بينهم وبين غيرتهم المبكرة وجميع أنواع الصراع التي كانت سنوات حياتهم الأولى ميداناً لها، والتي سبق أن وصفتها منذ قليل، ولكني أؤكد لكم أنكم تكونون مخطئين لو ظننتم ذلك. إن ما تكشفون عنه في بيت الأطفال أو في المدرسة، ليس إلا الظواهر الناتجة عن ذلك العهد الأول من الحياة؛ فالأطفال الذين تصفونهم بأنهم مشاغبون وغير اجتماعيين، ولا يقنعون بشيء مطلقاً، إنما يستبدلون رفقاءهم في المدرسة بإخوتهم وأخواتهم، وهم فيها، إنما يناضلون معهم أنواع الصراع التي عجزوا عن أن يفضوها في بيوتهم.. أما الكبار من الأطفال الذين يثورون بشدة إذا ما

حاولتم أن تفرضوا عليهم أبسط أنواع السلطان، أو أولئك الذين أصبحوا في حالة من الجبن والاستسلام بحيث لا يجرؤون على أن يرفعوا أعينهم في وجوهكم، أو يتكلموا بصوت مسموع في صفوفهم، هؤلاء جميعاً ليسوا في الحقيقة سوى صغار الأطفال أنفسهم، ولكنهم حوَّلوا نحوكم رغباتهم في موت آبائهم، وكبتهم العنيف لهذه الرغبات، مما أدى إلى ذلك اليأس والاستسلام. ومن ثم تلمسون تعليلا لظاهرة ملأتكم في أول الأمر دهشة واستغراباً. والواقع أن الأطفال في السادسة من عمرهم، يأتون إليكم مجهزين باستجابات قد تم تكوينها من قبل، وأنهم إنما يكررون هذه الاستجابات معكم. وكل ما تقع عليه أبصاركم من سلوك وأفعال، ليست إلا إضافة وتكراراً لأنواع قديمة جداً من الصراع، ليس لكم فيها من الأثر إلا النزر اليسير.

وإني لأتوقع منكم اعتراضاً آخر، إذ من المحتمل أن تقولوا إن الأسرة بالصورة التي رسمتها لكم ليس لها وجود بالمرة، على الأقل في حالة الأكثرية من الأطفال الذين تعالجونهم؛ فنادراً ما تجدون أماً تؤثر أطفالها بمثل تلك الرعاية والحنو، موزعة إياهما عليهم دون ما تحزب. ولا أنتم واجدون في الغالب أباً يعيش مع زوجته في مثل تلك الصداقة وذلك الوئام، وهو في الوقت نفسه جدير بأن يكون موضع حب ابنه الصغير وإعجابه؛ فالصورة الواقعية بوجه عام تختلف كثيراً عن ذلك.

ولكني في وصفي لكم تلك الأسرة النموذجية، إنما كنت أرمي إلى هدف معين؛ فقد أردت أن أبين لكم المركز الصعب للطفل بانفعالاته

المتصارعة، حتى لو كان محيطه بالطفل أسوأ من ذلك، وكانت حياته العائلية أكثر بؤسا، فإن الصراع الذي يحدث داخل نفسه يكون أفظع شدة وأعظم عنفا.

دعونا نفترض أن الطفل ينشأ على يدين غير يدي أمه، بل يعهد بتربيته في تلك السنة الأولى ذات الأهمية القصوى، إلى هذا البيت زمناً، وذاك البيت زمناً آخر، أو أنه ينشأ في مؤسسة تحت إشراف مربيات غير مكترثات على العموم ودائمات التغير. أما يجدر بنا أن نعتقد أن فقدان هذه الرابطة الوجدانية الطبيعية الأولى سيكون به أعظم الأثر في حياته كلها بعد ذلك؟

أو دعونا نفترض أن الوالد الذي يرى الطفل فيه مثله الأعلى، والذي يعمل على أن يحذو حذوه، رجل سكير أو مجنون أو مجرم. إن الجهد الذي يبذله الطفل كيما يتشبه بأبيه، وهو في الظروف العادية من أعظم العوامل المساعدة على تنشئته سيؤدي به في مثل هذه الأحوال إلى دمار مباشر، وإذا ما كان الوالدان منفصلين متباعدين، يعمل كل منهما على كسب الطفل إلى جانبه، ويصور الآخر بصورة المخطئ المذنب، ففي هذه الحالة يتعثر النمو العاطفي الكلي للطفل. إن هذا ليسبب يقظة قوى النقد عنده قبل أوانها بكثير، فتحطم ثقته وإيمانه.

وسأتلو عليكم حكم ولد في الثامنة من عمره، حاول دون جدوى، أن يقرب بين والديه، ويصل ما انقطع بينهما من العيش، إذ

قال: "إذا كان أبي لا يحب أمي، إذن فأمي لا تحب أبي، وإذن فلا يمكن أن يحباني، وإذن فأنا لا أريدهما، وإذن فالأسرة جميعا فاشلة لا خير فيها".

إن هذه النتائج التي توصل إليها الطفل من اعتباره الحالة كلها، نتائج خطيرة بوجه عام. إن سلوكه لقريب الشبه بسلوك موظف يعمل في محل مفلس، إذ يفقد ثقته في جميع رؤسائه، وبذلك لا يستشعر أية لذة في عمله. وهكذا ينقطع الطفل في مثل تلك الظروف عن العمل، بمعنى أن نموه الطبيعي يتعثر ويقف، ويستجيب لهذه الظروف الشاذة بشكل شاذ من السلوك.

وهنا أختتم محاضرتي.. لقد أبنت لكم المهمة الشاقة في تصوير الحادثات التي تقع في السنوات الأولى من حياة الطفولة على الشكل الذي يمكن أن تصوره طريقة التحليل النفسي وترسمه، ولست أدري إلى أي حد تظهر لكم التفاصيل التي شرحتها مقبولة معقولة أو غير محتملة، وعلى كل حال فقد ساعدت كشوف التحليل النفسي في توجيه انتباه الناس بوجه عام إلى أهمية ما يحدث في السنوات المبكرة من الطفولة. وأخيراً فستوضح لكم الحالة التي سأشرح تفاصيلها الآن، النتائج العملية لمثل تلك الاعتبارات النظرية.

من مدة وجيزة، كان على إحدى المحاكم الألمانية أن تصدر حكما في قضية طلاق بين زوجين، وفي أثناء البحث القانوني للقضية، قامت مشكلة خاصة بأيهما أجدر برعاية طفلهما البالغ من العمر سنتين. وقد أثبت المحامي عن الزوج، أن الزوجة بناء عن صفات كثيرة في

أخلاقها، ليست أهلا لتربية الطفل، وقد اعترض المحامي عن الزوجة على هذا بأن الأمر المهم تجاه طفل في الثانية من عمره، ليس خاصاً بتربيته مطلقاً. وإنما هو فقط رعايته والاهتمام بشأنه، ولكي تفصل المحكمة في نقطة الخلاف هذه، استعانت بآراء بعض الخبراء عن السن التي يمكن القول بأن تربية الطفل تبدأ فيها، وكان الخبراء الذين استعين بهم خليطاً من علماء التحليل النفسي، وعلماء المذهب الأرثوذكسي في علم النفس. ولكنهم جميعا وافقوا على أن تربية الطفل تبدأ من أول يوم يولد فيه.

ولدينا كل دليل على أنه لولا كشوف التحليل النفسي، لكانت فتوى الخبراء في هذا الشأن مغايرة لما أفتوا به.

المحاضرة الثانية

حياة الغريزة في الطفولة المبكرة

لست أدرى تماما كيف استقبلتم كلامي في المحاضرة السابقة، ولكني أجرؤ على أن أتصور أن الانطباع الذي تركته فيكم كان مزدوجا. فمن جهة، تظنون أنني أدليت لكم بحقائق أنتم على أتم دراية بها،

مؤكدة إياها بشكل ليس من كبير داع له. وقد تشعرون أنني افترضت خطأ أننا لا نزال في العهد الذي يحكم المعلمون فيه على تلاميذهم كما لو كانوا وحدات منفصلة عن أسرهم؛ وقد تقولون إنني نسيت أن المعلم في هذا العصر، مهما كان حديث عهد بمهنته، يفكر قبل كل شيء – حين تظهر بعض المشكلات في البيئة المنزلية للطفل، وفي احتمال تأثير الوالدين فيه تأثيراً غير مُستحب، وفي مركز الطفل بين إخوانه وأخواته – أعني في الآثار التي تنتج عن كون الطفل أكبر إخوته سنا، أو أصغرهم، أو أوسطهم. إنكم دائماً تحاولون أن تفسروا سلوك الطفل في المدرسة بالكيفية التي عومل بها في المنزل.

وقبل أن أحاضركم بمدة طويلة، لابد أنكم كنتم مدركين تماماً أن أخلاق الطفل تتأثر لدرجة كبيرة بخبراته وتجاربه في المنزل. ومن جهة أخرى فقد تشعرون أنني واجهتكم بتلك الحقائق البسيطة بشكل مبالغ

فيه؛ فتظنون أنني في كل مناسبة فسرت انفعالات الأطفال الصغار وأفعالهم بتشبيهها بما يقابلها من مظاهر الكبار، وأنني وصفت سلوك الأطفال بالكلمات التي تستعمل عادة في وصف سلوك الكبار. فمثلا حولت الاحتكاك العادي الذي ينشب بين الطفل وإخوته وأخواته، إلى رغبات جدية في موهم، وصلة الولد الرقيقة الطاهرة بأمه، إلى حب الراشد الذي يشتاق إلى امرأة اشتياقاً جنسياً.

ويظهر لكم أمراً طبيعياً أن ينتهي الولد إلى الاعتراف بقوة الوالد الفائقة في أثناء اتصاله به كل يوم اتصالا وثيقا، ويستسلم – غير راغب – إلى أوامر الوالد وإلى حجره على حريته. ولكني أعتقد أن نوعا من الصراع ينشب بين الوالد وأبيه، مثل ذلك الذي يصفه شيلر في رواية دون كارلوس[11] **Don Carlos**، ولقد سمعتم مدهوشين أن علماء التحليل النفسي ذهبوا إلى حد مقارنة الموقف العاطفي للطفل الصغير، بموقف الملك أوديب، الذي – كما تقول القصة الإغريقية – ذبح أباه وتزوج بأمه[12].

---

[11] دون كارلوس (**1545 – 1568**) هو ابن ملك الإسبان فيليب الثاني، وكان شابا عنيدا عنيفا، خطب إليزابث ابنة هنري الثاني ملك فرنسا، ولكن أباه تزوج بها بعد أن توفيت زوجته. وكان دون كارلوس يحب الأميرة، ولذلك لم يغفر لأبيه فعلته. ولم يكن الأب والابن بعد ذلك على وفاق، حتى جهر الأب بأن دون كارلوس ليس أهلا للتربع على العرش من بعده. وكان الأمير يضع تحت وسادته سيفين معربين، ومسدسين محشوين، وكثيرا ما كان يصيح بأن أباه قد اغتصب عروسه منه.. وخشي الملك على حياته من ابنه فجرده من أسلحته وجعله سجينا في غرفته وقد حاول الأمير الانتحار بالحرق والجوع والعطش، ولكنه لم يفلح. ويقال إن والده الملك استطاع أن يصدر بموافقة البابا حكما بإعدامه وقد كتبت قصص كثيرة عن دون كارلوس من أهمها الرواية التي ألفها الشاعر الألماني شيلر (المعرب)

[12] ملخص القصة التي استعار فرويد اسم بطلها وأطلقه على أهم مركب يؤثر في سلوك الطفل بشكل شعوري، في أول الأمر ثم في سلوك الإنسان بعد ذلك بشكل لا شعوري، هو أن ملكا من ملوك الإغريق القدماء أنجب طفلا اسمه أوديب. (**Oedipus**) وقد أخبره المنجمون أنه سيلقى حتفه على يدي ابنه هذا، فخشي الملك أن يتحقق هذا

وبذلك برهنت لكم بكل بساطة – عن طريق أقوالي ونقاشي – أن التعصب ضد التحليل النفسي الذي شعرتم به دائماً حتى الآن، ليس على غير أساس. وكل ما فعلته هو أني حولت هذا التعصب إلى رأي تتدبرونه في ضوء خبراتكم.

ولست الآن مزمعة على أن أؤيد وجهة نظر علماء التحليل النفسي بالجدل والمناقشة، بل كل ما أرجوه منكم، أن تؤجلوا حكمكم عليها إلى أمد قصير.

دعونا نرجع مرة أخرى إلى الحكم الذي أصدرته هيئة المحكمة الألمانية، والذي – كما أشرت لكم من قبل – يحظى بالموافقة التامة من لدن علماء التحليل النفسي. ماذا نفهمه من التربية ابتداءً من أول يوم في الحياة؟ ماذا هنالك حقا لنتعهده بالتربية في ذلك المخلوق الصغير، العظيم الشبه بالحيوان والذي لا نعرف عن عملياته العقلية حتى الآن سوى النزر اليسير؟ إلى أية وجهة تستطيع جهود التربية أن تتجه؟ قد يظن المرء تبعاً للوصف الذي أعطيناه لحياة الطفل الداخلية وعلاقاته بالأفراد في محيطه،

التنبؤ، ولذلك أرسل ولده بعيداً عن حدود مدينته. وهناك عثر عليه أحد الرعاة فأخذه إلى ملك تلك المدينة الجديدة الذي كان محروما من النسل، ففرح به وترعرع في بيته. وبينما يتجول مرة، قابل في طريقه أباه الحقيقي وكان قد خرج للصيد، ولم يعرف أحدهما الآخر، وحدث احتكاك بينهما أدى إلى عراك انتهى بأن قتل أوديب أباه. وسار الشاب في طريقه حتى وصل حدود مدينة أبيه، وكان أهلها مشغولين بلغز يرفع تفسيره شرا عن المدينة، وجعلوا لأول رجل يحله عرش المدينة والزواج من الملكة الأرمل، ففسر أوديب اللغز، ونصبوه لذلك ملكا عليهم، وزوجوه بالملكة، وهي أمه، دون أن يدري أحدهما صلة الآخر به. وبعد أن عاشرها وأنجب منها نسلا، عرف أن الملكة ليست سوى أمه، ففقأ عينيه وعاش بعد ذلك هائماً في بؤس وعذاب. (المعرب)

أن الإجابة على هذه الأسئلة أمر بسيط. فقد يكون واجب التربية في حالة الطفل الصغير هو الوقوف في سبيل الرغبات الشريرة الموجهة ضد إخوته وأخوانه وأبيه، وكذلك الوقوف أمام رغباته نحو أمه واشتياقه لها، ومنعها كلها من أن تتحقق.

ولكنا لو تدبرنا هذا التعريف لأولى مراحل التربية، تدبراً أكثر دقة، وجدناه غير مرضي بل وسخيفاً بعض السخافة. فموقف الطفل الصغير في عالم الراشدين المحيط به موقف بؤس وعجز. ونحن نعلم أن ما يصونه من الدمار ليس إلا عطف من يلتفون حوله. وكل موازنة بين قوته وقوة أولئك الغريبين عنه هي ولا شك موازنة في غير صالحه. ومن أجل ذلك فليس أمامه أقل فرصة لتحقيق رغباته الخطيرة. حقا قد نجد حالات في محاكم الأحداث، وفي عيادات الأطفال، لأولاد قاموا فعلا بدور الآباء مع أمهاتهم على أتم استطاعتهم تبعاً لنموهم الجسمي، وحالات لبنات صغار اتصل الآباء بهن اتصالا جنسيا. ولكن في مثل هذه الحالات جميعا، لم تكن قوة الطفل ونشاطه هما السبب في تحقيق رغباته العاطفية بهذا الشكل المنحرف، وإنما كان سبب ذلك، الرغبات الشاذة لدى الكبار الذين استغلوا عواطف الطفل نحوهم في إرضاء شهواتهم الخاصة. وعادة تكوين وقاية الطفل، في الحياة الواقعية، غضب أبيه، أكبر أهمية بكثير من وقاية الأب عداء طفله له.

وعلى ذلك لا تزال مسألة وضع تعريف للتربية في السنة الأولى من الحياة غير محلولة، ولا تزال معلوماتنا عن هدفها ضئيلة قليلة. وربما

نجد أساساً جديداً لحل هذه المسألة إذا قارنا بين الفكرتين الخاصتين برعاية الطفل وتربيته، وأشير ثانية بهذا الصدد، إلى الحكم القانوني الذي ذكرناه آنفاً.

وليس ثمة صعوبة في وضع تعريف لرعاية الطفل. إن العناية بالطفل لتقوم على إشباع حاجاته الجسمية. فالقائم على أمر الطفل يشبعه من جوع، وينظفه من قذارة – وربما كان الأمر الأخير تحقيقاً لرغبة المربي أكثر منه سداً لحاجة الطفل – ويعمل على تدفئته وتهدئته، ويحافظ عليه من متاعب الحياة وأخطارها. إن هذه الرعاية تعمل على إمداد الطفل بجميع حاجاته، دون أن تتطلب منه في مقابل ذلك شيئا. وعلى العكس من ذلك تتطلب التربية دائما من الطفل بعض الأشياء.

وقد يسوقني الكلام إلى الابتعاد كثيرا عن الدائرة التي رسمتها لنفسي، لو أني بدأته بأن أصف لكم أهداف التربية في الماضي والحاضر، ولا حصر لعددها. فالمربون، وأقصد بهم أولئك الكبار الذين يكونون بيئة الطفل، يرغبون على الدوام في أن ينشئوه على الشكل الذي يلائمهم، والذي يختلف تبعاً لذلك باختلاف عصرهم، ومركزهم، ودرجتهم، وطبقتهم إلى غير ذلك. ولكن يجمع الأهداف المتباينة عامل مشترك بينها، فهدف التربية العام هو أن تجعل من الطفل إنساناً كبيراً لا يختلف كثيراً عن عالم الراشدين المحيطين به. ونجد هنا – تبعاً لذلك – بداية التربية، فهي تعد كل شيء يختلف الطفل فيه عن الراشد، سلوكا أقرب إلى سلوك الطفل، وعلى ذلك يجب أن تكون إجابتنا على السؤال الخاص بأول

أشكال التربية كما يأتي: تكافح التربية طبيعة الطفل، أو – كما يسميه الكبار عادة – عرامه[13].

وقد يكون من الخطأ أن أعفيكم من سماع أنواع عرام الأطفال، على أساس أن كل معلم وكل مرب يعرفها عن طريق ملاحظاته، فالعرام الذي يبدو من الطفل في المدرسة يعكس بدرجة ضئيلة فقط، ما يدور بداخل نفسه، ولا نستطيع أن نحصل على وصف حقيقي لخصائص ذلك العرام إلا من أولئك الناس الذين يشغلون أنفسهم دائماً بالطفل الصغير منذ حداثته إلى سن الخامسة. إننا إذا ساءلنا أولئك الناس، نسمع منهم أشياء مثل ما يأتي: إن الطفل أناني ولا يفكر في غيره مطلقا، إنه يهتم فقط بأن يسير تبعا لهواه، وأن يحقق رغباته الشخصية، إنه لا يهتم مطلقا بما إذا كان في ذلك ضرر لغيره أم لا، إنه قذر وكريه الرائحة؛ إنه لا يتورع عن أن يمسك أفظع الأشياء تقززاً للنفس، أو حتى عن أن يضعها في فمه؛ إنه لا يشعر بحياء أو خجل مطلقا تجاه أعضاء جسمه؛ وإنه كثير التطفل للأشياء التي يرغب الناس الآخرون في أن يخفوها عنه؛ إنه شره، وإنه ليسرق الحلوى؛ إنه قاس على جميع المخلوقات الضعيفة بالنسبة له، وإنه مملوء بالشهوة لتخريب الأشياء الجامدة وتحطيمها؛ إنه يقوم بالكثير من الحيل الجسمية العارمة: فهو يمص أصابعه، ويقضم أظافره، ويعبث في

[13] العرام أو العرامة هي الكلمة العربية التي تحمل معنى كلمة "الشقاوة" التي تستعمل في الكلام الدارج وهي ترجمة لكلمة **Naughtiness** بالإنجليزية والشخص العارم أو العرم يقصد به "الشقي" بالمعنى الدارج **Naughty** (المعرب)

أنفه، ويلعب بأعضائه التناسلية. إنه يقوم بذلك كله مدفوعا برغبة ملحة في إرضاء نفسه، ويعد أي مانع يقف في سبيله لذلك، أمراً لا يحتمل.

وأهم ما يشكو منه الآباء والأمهات، وهم يصفون أطفالهم، أمران اثنان: إنهم ليشعرون تجاههم باليأس، إذ نادراً ما يحدث أن يحطموا عادة من العادات السيئة في الطفل، دون أن تظهر عادة سيئة أخرى بديلا عنها، ثم إنهم ليعجزون عن أن يفهموا مصدر مثل هذه العادات. فمن المؤكد أن الطفل لا يأخذها عنهم؛ ثم إنهم حاولوا بكل عناية فائقة، أن يبعدوه عن الأطفال العارمين.

إنكم سوف تقولون إن هذا الوصف لصفات الأطفال هو اتهام أكثر منه وصفاً محايداً موضوعياً، ولكن لم يحدث قط أن اتخذ الكبار[14] في وصفهم لخصائص الأطفال موقفا موضوعياً، والتربية كما ترى من وجهة نظر الطفل على طول السنين، هي شيء أشبه بمعلم شديد القسوة، يأتي وقد ملأه الصلف، لكي يفحص عن حالات تلاميذه. إنه لن ينجح في الحصول على الحقائق الصحيحة عن الحالة التي يدرسها، ولا عن الصلات الحقيقية التي تربط الحوادث، إذا لم يتدبر في حكمة وتعقل، تأجيل حكمه حتى ينتهي من فحصه عنها..

[14] في الغالب تقصد المؤلفة بكلمة الكبار **Adults** الآباء والأمهات أو من يقوم مقامهم تجاه الصغير. (العرب)

إن أنواع العرام الخاصة بالأطفال، كما يسميها الآباء والأمهات، ليست إلا مجموعة مهوشة غير منتظمة من خصائص الأطفال، وليس هناك ما يمكن أن نقوم به سوى أن نشعر إزاءها بالأسى، ولكن حتى الآن، لم تكن نظرة العلم أيضاً للطفل نظرة أكثر موضوعية من نظرة الكبار له. فلقد سار على خطة مغرضة في نكران كل تلك النواحي التي يرى أنها لا تنسجم مع الصورة التي رسمها لطبيعة الطفل، في ضوء فروض تغاير فروض الكبار تمام المغايرة. لقد كان التحليل النفسي أول ما حرر نفسه من الأحكام والفروض والتعصبات التي حاول الكبار أن يقدروا بها طبيعة الأطفال منذ أسحق العصور، ونتيجة لهذا نجد كثيراً من العادات السيئة، التي لم يستطع تفسيرها مطلقاً حتى الآن، تترابط في كل منظم بشكل على أعجب ما يكون النظام إننا نكشف عنها سلسلة حتمية من الحادثات – لا أفعالا صدفية غير مترابطة – تساير أدوار النمو، وتشابه ما لاحظناه منذ أمد طويل في تطور النواحي الجنسية.

وعلاوة على ذلك، فقد اهتدى التحليل النفسي إلى الإجابة على الشكايتين الأساسيتين للآباء والأمهات من ناحية أطفالهم، وهما التغير السريع من عادة سيئة إلى أخرى، وتكوين العادة دون أن يكون هناك مسبب خارجي لها، لم تعد هذه الأشياء مسائل محيرة منذ أن تبين أن تلك العادات السيئة العارمة، لا تدل على أي نوع من شذوذ مؤلم في الطفل، وإنما هي حلقات طبيعية سوية في سلسلة مقدرة من النمو.

وأول دليل على وجود نظام في هذه الظاهرة، يقوم من ملاحظة أن أجزاء الجسم التي يلعب الطفل بها حيله العارمة لم تختر اختياراً، ولكنها مقدرة من قبل في تتابع دقيق. إنكم قد تذكرون أننا، في حديثنا الأول، تتبعنا الصلة الوثيقة بين الطفل وأمه، إلى الغذاء والرعاية الأوليين اللذين تقدمها الأم للطفل. وأول سلوك عارم يقوم الطفل به، يصدر عن السبب نفسه، ويتصل بالمكان عينه.

ففي الأسابيع الأولى من الوجود، يلعب الغذاء أهم دور في حياة الطفل. وفي أثناء هذه المدة، يصبح الفم وكل ما يتصل به أهم أجزاء الجسم عنده. إن الطفل ليجد مص ثدي أمه بفمه، والحصول بذلك على اللبن. أمراً لذيذاً جداً. وحتى بعد أن يشبع جوعه، تبقى لديه الرغبة في استمرار هذه الخبرة اللذيذة وتكرارها وسرعان ما يتعلم كيف يحصل ثانية على ذلك الشعور البهيج مستقلا عن الغذاء، وعن الشخص الذي يتشرب منه غذاءه، وذلك بأن يمص أصبعه، وعند ذلك نقول إن الطفل "يمص". وتظهر على وجه الطفل وهو يفعل ذلك، أمارات الرضى والهناءة التي تظهر عليه عندما ترضعه أمه. ولذلك لا يخالجنا أي شك مطلقاً من حيث الدافع على عملية المص هذه. وهكذا نرى أن الطفل يمص لأنه يستمتع بالمص، وتصبح الآن اللذة التي يستشعرها الطفل من تعاطي الغذاء، لذة في حد ذاتها.

ويعد هذا السلوك الذي يتلذذ الطفل بالقيام به، والذي يمانع فيه الكبار، عادة عارمة، وعندئذ لا تكون الفعالية اللذيذة التي يقوم بها الفم

مقصورة على تعاطي الغذاء وعلى المص، بل يسلك الطفل كما لو كان يرغب في أن يتعرف على كل شيء في متناول يده عن طريق فمه. إنه يعض ويلحس، ويتذوق كل شيء قريب منه. ولا يقر الكبار المتصلون بالطفل هذه الأنواع من السلوك التي يقوم بها، وبكل تأكيد لا يعدونها بها صفات مستحبة، لأنها تتنافى مع رغبتهم في أن يكون الطفل نظيفاً، ولما فيها من خطر على صحته، ويبقى الدور الرئيسي الذي يقوم به الفم مصدراً لهذه الخبرة الممتعة، طوال السنة الأولى من الحياة تقريباً.

وإذا تذكرتم قائمة الاتهامات ضد الطفل، تجدون فيها العادات العارمة التي ترجع أصولها إلى هذا العهد من الحياة، ولكنها تستمر إلى ما بعد هذا العهد: وأشير هنا إلى الشره ومحبة الحلوى.

أما المنطقة الجسمية الثانية التي تظهر بشكل رئيسي، وتحتل المكان الرئيسي الذي كان يشغله الفم من قبل، فإنها تحدد بالخبرات الخارجة عن الجسم. فحتى الآن، كان الكبار ذوي صبر تجاه الطفل، مشغولين في الحقيقة انشغالا كليا في الغالب برعايته[15]، والحالة الوحيدة التي كانوا يخرجون فيها على هذا الصبر، هي عند تعويده عادات النظام في تعاطي الغذاء وفي النوم. ولكن الآن يبدأ عامل جديد مهم جداً يتدخل تدريجياً في حياة الطفل، وهذا العامل هو تدريبه على النظافة؛ فالأم أو

[15] تقصد المؤلفة بذلك أن شغل الأم الشاغل في السنة الأولى من الحياة هو إمداد الطفل بالغذاء، وتدفئته إلى غير ذلك مما يدخل تحت تعريف رعاية الطفل الذي سبق شرحه. وما عدا ذلك من تعويده بعض العادات الخاصة بالنظافة فلم تكن تعيرها في تلك السنة المبكرة أى اهتمام. (المعرب)

المربية تحاول أن تحطم فيه عادة البلل والقذارة[16]، وليس من السهل أن نعلم الطفل ضبط هذه الوظائف.. ويمكننا حقاً أن نقول إنه من حيث تدريب الطفل، فإن السنة الثانية طولها، تخصص لمجهودات نشيطة جداً لغرس عادات النظافة فيه.

وتشعرون أنه لا ينبغي أن يلام الطفل على كونه عارماً، إذ أن تدريبه على النظافة يتطلب وقتا طويلا؛ فقد لا تكون العضلات الضابطة نامية نمواً كافياً يجعله قادراً على حبس بوله، وتنظيم حركاته. هذا صحيح حقاً في أول عهود التدريب على النظافة. بيد أن الأمر يختلف بعد ذلك، فلو دققنا في ملاحظة الطفل، خالجنا الشك في أنه لا يزال عاجزاً عن أن يحافظ على نظافة جسمه، ووجدنا أنه إنما يحتفظ بحقه في الإفراز عندما يحلو له ذلك، وأنه بكل تأكيد لا يسمح لأحد أن يسلبه حقه في نتاج جسمه الذي هو ملك له. إنه يبدي اهتماما خارقا للعادة بإفرازاته الخاصة به، إنه يحاول أن يلمسها ويلعب بها، وإنه ليحاول أن يضعها في فمه لو لم يمنع من ذلك في الوقت المناسب. وفي استطاعتنا أن نبرر بسهولة الدافع له على هذا السلوك بمشاهدة ما يظهر على وجهه من علائم، وربما يبدو عليه من الحماسة عند قيامه به إنه ليمده بفيض ظاهر من السرور، إنه إذن لسلوك لذيذ ولكن ليس هناك من صلة بين هذه اللذة وقوة أو ضعف العضلة الضابطة في المثانة أو في المخرج. فكما كان الحال عند

---

[16] تقصد المؤلفة بعبارة البلل والقذارة تبول الطفل وإفرازه في ملابسه (المعرب)

كشف الوليد الصغير، في أثناء تعاطيه الغذاء من ثدي أمه، عن لذة جديدة في كل ما يتصل بالفم، كذلك يستشعر الطفل الآن لذة في مخرجه بعد أن تقوم أمعاؤه بوظيفتها. ويصبح في هذا العهد، الجزء الذي حول مخرجه، أهم جزء في جسمه. وكما كان الحال في عهد الرضاعة، عندما كان الوليد يحاول باستمرار الحصول على اللذة عن طريق فمه مستقلة عن لذة الغذاء، فكذلك يحاول الطفل الآن أن يقبض إفرازاته ويتلاعب بذلك الجزء الخاص من الجسم، كيما يحصل على اللذة نفسها.

وإذا كان تدريب الطفل وتهذيبه يمنعانه منعاً شديداً من أن يستمر في القيام بذلك النشاط، فإنه، عن طريق ألعابه المشروعة في الرمل والماء والطين، ثم عبثه بالصباغ بعد ذلك، يتعلق بذكريات تلك اللذة التي قدرها كل التقدير مرة في حياته من قبل.

ودائماً ما يشكو الكبار من أن الطفل في هذا العهد قذر ويحمل عادات شنيعة، وهم في الوقت نفسه يميلون على الدوام ن يلتمسوا له المعاذير: مثلا، إنه لا يزال صغيراً جداً وأحمق، أو إن الحساسية الجمالية لم تتكون بعد فيه تكويناً كافياً، تقدره على أن يفهم فهما صحيحاً الفرق بين أن يكون الشيء نظيفاً، وأن يكون قذراً. أو أن حاسة الشم عنده لم تدرب بعد تدريباً كافياً بحيث يمكنه بها أن يميز الرائحة الزكية من الرائحة الكريهة.

وإني أعتقد أن الملاحظين للأطفال يخطئون إلى حد ما في أحكامهم. إن الذي يلاحظ الطفل الصغير، حوالي السنتين من العمر،

ملاحظة فاحصة، لابد أن يتبين له أن الطفل يستطيع أن يميز بين الروائح المختلفة تمييزاً صحيحاً إلى درجة خارقة، وأن الفرق بينه وبين الطفل ينحصر في تقديراتهما المتباينة للروائح المختلفة فقد يقف الطفل أمام زهرة خاصة تنشي رائحتها الشخص الراشد، موقف غير المكترث، مالم يتعود الثاني أن يُسمع الطفل "آه ما أذكاها من رائحة!" كلما هم باستنشاقها. إن كل ما يبدو لنا رائحة كريهة فظيعة، يتلمسها الطفل ذكية الرائحة. وبالطبع يمكن – إن أردنا – أن نعتبر الطفل عارماً لأن الروائح الكريهة تكسبه لذة!.

ونجد تكراراً لهذا التباين في تقدير الكبار والصغار، في خصائص أخرى من خصائص الأطفال. فقد لوحظت على مرر القرون، الظاهرة الخاصة بقسوة الأطفال، دون أن يقوم لها تعليل سوى أنها ناشئة عن حماقتهم. فعندما يمزق الطفل سيقان الفراش والذباب وأجنحتها، وعندما يقتل الطيور أو يعذبها، أو يحول ميله الشنيع للتدمير والتخريب نحو لعبة أو نحو الأشياء التي تستعمل كل يوم، فإن الكبار يلتمسون له العذر في أنه خلو من القدرة على استشعار الرحمة نحو مخلوق حي غيره، أو في أن تقديره لقيم الأشياء من الناحية المادية قليل ضعيف. بيد أن ملاحظتنا تهدينا إلى إدراك شيء آخر. مختلف عن هذا. إذ ندرك أن الطفل يعذب الحيوانات، لا لأنه لا يفهم أن ذلك يضاعف آلامها، ولكن لأنه يريد حقاً أن يضاعف آلامها. والصراصير الصغيرة الضعيفة هي أقل المخلوقات خطراً في الحياة. إن الطفل يقوم بتخريب الأشياء، لأنه بالنسبة إلى السرور الذي يشعر به عند تخريبها، لا يأخذ مطلقاً بعين الاعتبار قيمتها

الفعلية. ويمكننا أن نحدس الدافع لسلوكه هذا. تماما كما فعلنا عندما كان يقوم بمص إصبعه، ويلعب بالأشياء القذرة. وذلك عن طريق ما يبدو على وجهه من العلائم، والفرح المستفيض الذي يملؤه وهو يقوم بتحقيق دافعه. ومرة أخرى، نجد هنا أن الطفل يقوم بمثل هذا السلوك لأنه يمده باللذة.

وبعد أن يدرب الطفل تدريباً تاما على النظافة، وبعد أن يعلم كيف يضبط حركاته، على الرغم من معارضته لذلك، يفقد الجزء الذي حول المخرج أهميته، من حيث أنه وسيلة لاكتساب مشاعر لذيذة. ويظهر بديلا عنه، جزء آخر من الجسم أكبر أهمية منه، إذ يبدأ الطفل يلعب بأعضائه التناسلية. وفي هذا العهد الجديد، يتجه ظمؤه للعلم نحو الكشف عن الفروق بين جسمه هو، وأجسام إخوته وقرنائه في اللعب. إنه ليسر من أن يُظهر أعضاءه التناسلية عارية لغيره من الأطفال، ويطلب منهم مقابل ذلك، أن يرى أعضاءهم. والأساس الذي يصدر عنه رغبة الطفل الملحة في أن يسأل الكثير من الأسئلة التي يتذمر الكبار منها، يقوم على المشكلتين الآتيتين: الفرق بين الجنسين، وعلاقته بالأصل في وجود الصغار، الذي يدركه الطفل إدراكا يشوبه شيء من الغموض. ولكن الحد الأقصى للنمو الذي يصل إليه الطفل في نواح كثيرة خلال ذلك العهد – أعني في سنتيه الرابعة والخامسة – يقابل في نظر الكبار الذين يقومون بتدريبه، الحد الأقصى لعاداته السيئة.

ومن هذا كله، نعلم أن الطفل يسلك سلوكه طوال مرحلة النمو التي وصفناها من قبل، كأن ليس هناك شيء أكبر أهمية من أن يتمتع بملذاته الخاصة، ويرضي غرائزه القوية. بينما تسلك التربية سلوكها كما لو كان أهم واجب لها، هو أن تمنعه من تحقيق هذه الأهداف. ونتيجة لذلك ينشب نوع من "حرب الغوريلا" بين المربي والطفل؛ فالتربية تريد أن تبدل حب للقذارة اشمئزازاً منها؛ وانعدام الشعور بالخزي شعوراً به؛ والقسوة رحمة ورأفة؛ والشهوة للتدمير والتخريب رغبة في المحافظة على الأشياء وصونها. يجب أن تقام سدود من النواحي أمام شهوة الطفل للاستطلاع حتى تمحوها، وأمام رغبته في اللعب بأعضاء جسمه حتى تقضي عليها. يجب أن يستبدل بعدم اعتبار الآخرين اعتبارهم. وبالأثرة الإيثار. وهكذا تعمل التربية تدريجياً على تحقيق أهداف تناقض الأهداف التي تدفع رغبات الطفل الغريزية إليها.

وقد رأينا كيف أن الحصول على اللذة هو هدف الطفل الرئيسي في الحياة، بينما يريد الراشد تدريبه على أن يعد مطالب الحياة الخارجية أكبر أهمية من دوافعه الغريزية. ولكن ليس الطفل إنساناً صبوراً؛ إنه لا يستطيع أن يطيق أي تأخير أو تأجيل؛ إنه يريد أن يعمل فقط للحظة التي هو فيها، ولكن الراشد يعلمه أن يؤجل تحقيق دوافعه، وأن ينظر إلى المستقبل ويبالي به.

ولربما أدهشكم أن الوصف الذي عرضته عليكم لم يتضمن أي تمييز أساسي بين اللذة التي يثيرها المص، واللذة التي يثيرها اللعب

بالأعضاء التناسلية، أي القيام بالعادة السرية. وفي الحقيقة لا يوجد أي تمييز بينهما في نظر التحليل النفسي؛ فجميع الأفعال اللذيذة التي وصفتها لكم، ليست إلا جهوداً تبذل في سبيل إرضاء الدوافع الغريزية. وعليها جميعاً يسبغ التحليل النفسي معنى جنسياً سواء أكانت تتصل بالأعضاء التناسلية فعلا، أم بالفم، أم بالمخرج. والدور الذي تقوم به الأعضاء التناسلية في السنة الرابعة أو الخامسة من حياة الطفل، هو تماماً الدور نفسه الذي يقوم به الفم في السنة الأولى أو المخرج في الثانية. وإنما تتراءى لنا منطقة الأعضاء التناسلية، عند تأملنا فيها، ذات أهمية خاصة حين ننظر إليها من ناحية الحياة الجنسية للراشد التي فيها تكون الأعضاء التناسلية هي الأعضاء النوعية الخاصة بتلك الحياة. ومع ذلك، فإن لمنطقة الأعضاء التناسلية في عهد الطفولة المبكرة أهمية معينة. إن اللذة الشهوانية التي تصدر عنها تعمل بمثابة إعداد وتمهيد للسلوك الجنسي الصحيح.

وقد لا يتراءى لكم كون المناطق الجسمية التي يستمد منها الطفل الصغير ملذاته الشهوانية الأولى، تقوم بدور، ولو أنه دور غير رئيسي في الحياة الجنسية للراشد – قد لا يتراءى لكم هذا سبباً كافياً لأن ننعت هذه المناطق التي يصدر عنها نشاط الطفل للحصول على اللذة، بأنها مناطق جنسية، بالمعنى الذي نفهمه من النشاط المباشر الصادر عن الأعضاء التناسلية. ولكن التحليل النفسي يبرر هذا التصنيف لسبب آخر، فهناك حالات شاذة، فيها يحتفظ أحد هذه الدوافع الطفلية الأولى بمركزه الرئيسي، رافضاً أن ينقل نفسه إلى منطقة الأعضاء التناسلية،

ويبقى محتفظاً بمركزه الأصيل في حياة الرشد. إنه ينقض الدور الذي تقوم به الأعضاء التناسلية، ويعد الحصول على اللذة الجنسية متصلا به ومشتقاً منه وحده[17].

ومثل هؤلاء الناس الذين تشاهد فيهم هذه الحالات، يوصفون بأنهم شواذ في الناحية الجنسية. ويتميز هؤلاء بأنهم في مظهر مهم جداً من مظاهر حياتهم، ألا وهو مظاهر الحياة الجنسية، يظلون في مرحلة الطفولة، أو قد يتراجعون إلى هذه المرحلة بعد أن يكونوا قد وصلوا إلى هذا العهد أو ذاك من عهود الحياة.

وإن الإلمام بهذا الشذوذ في الحياة الجنسية للراشد، يجعلنا – وربما لأول مرة – قادرين على أن نفهم لماذا كانت التربية متحمسة كل الحماسة في منع الطفل من إرضاء دوافعه. إن أدوار النمو التي يجب أن يمر الطفل فيها، أدوار تسوق إلى هدف محدد محتوم. فإذا ما ظهرت إحدى هذه المحطات (الأدوار) جذابة جداً للطفل، بدأ الخطر في أن يتشبث بها إلى الأبد، ويرفض أن يتمم رحلته، أو يتقدم إلى المرحلة التي تليها من مراحل النمو. وقد سلك المربون سلوكهم كما لو كانوا على دراية بهذا الخطر، قبل أن يقوم أي دليل علمي يبين صحة مسلكهم هذا

---

[17] تقصد المؤلفة بهذا الكلام الحالات الشاذة عند بعض الناس الذين تتصل اللذة الجنسية عندهم بالفم فقط أو بالمخرج، ولا يستطيعون أن يستشعروا اللذة الجنسية من الأعضاء التناسلية نفسها. وكأن تلك اللذة التي كانت متصلة بالفم في السنة الأولى، أو بالمخرج في السنة الثانية، استقرت على هذا الشكل، ولم تتحول إلى الأعضاء التناسلية مطلقا؛ أي أن مثل هؤلاء لم يتطوروا في الناحية الجنسية تطوراً طبيعيا سويا. (المعرب)

بزمن طويل، ولذلك فإنهم رأوا أن واجبهم هو الأخذ بيد الطفل في مراحل النمو هذه، من غير أن يسمحوا له بالاستمتاع بأي رضى ولذة صحيحة من أية مرحلة، سوى المرحلة الأخيرة.

ومنذ أبعد العصور، والتربية تستخدم نوعين من الوسائل في كفاحها لمنع الطفل من الحصول على هذه اللذة الشهوانية المخيفة؛ فنوع على شكل تهديد للطفل مثل: "إذا مصصت إبهامك مرة أخرى فإني سأقطعه"، وهو تهديد تعودت المربيات والكتب المصورة (مثل كتاب **Struwelpeter**) أن تكرره على أشكال كثيرة مختلفة في جميع الحالات؛ فهن يحاولن أن يخفن الطفل بعنف فعلي، أو بإضرار بجزء مهم من جسمه يقدره كل التقدير، كي يدفعنه للتضحية بذلك النوع من اللذة. والنوع الآخر قد يكون على شكل إخبار الطفل، "إذا فعلت ذلك، فإني سأقف عن حبي لك!". وهنا يواجه الطفل احتمال فقدان حب والديه. وكلا التهديدين ينجح، بسبب مركز الطفل كما وضحناه في المحاضرة السابقة، أي بسبب بؤسه التام، وعجزه الكامل وسط عالم الكبار الطاغي، واعتماده اعتماداً كلياً على عطف والديه.

وكلتا الطريقتين تصادف نجاحا متكافئاً بوجه عام، ويتعلم الطفل تحت ضغط هذه الأخطار الفظيعة التي يهدّد بها، أن يهجر أساليبه الطبيعية. وهو إذ ينقطع عن هذه الأفعال في أول الأمر، إنما يتصنع أنه قد غيَّر من اتجاهه خوفا من الكبار، أو بسبب حبه إياهم. ثم يبدأ يصف بالبشاعة ما يظهر له جميلا، وينعت ما هو مؤلم له بأنه سار لذيذ. وكلما

زاد تشربه بوجهة نظر الكبار، فإنه يقبل قيم الأشياء عندهم على أنها القيم الصحيحة. وإذ ذاك يبدأ ينسى أنه شعر في وقت من الأوقات بشكل مغاير لما يشعر به، وينكر بالتدريج كل ما كان يصبو إليه في حياته المبكرة، ويقاوم كل رجعة ونكوص إلى متعاته الأولى، وذلك بأن يقلب مشاعره المتصلة بملذاته الشهوانية السابقة، رأساً على عقب. وعلى قدر ما يكون هذا التحول في الطفل تاماً، يكون رضاء الكبار عن جهودهم التربوية كاملا.

ولهذا النبذ للذة المشتقة من الدوافع الطفلية الأولى – الذي يرغم الطفل عليه إرغاما – أثران مهمان في نموه العقلي، إذ يبدأ يطبق المستوى المفروض عليه، على كل شيء آخر في العالم، من غير رحمة أو تساهل. إنه لا يطيق طول حياته بعد ذلك، أولئك الذين لم يصلوا إلى مستوى النمو الذي وصل إليه، والذين يسمحون لأنفسهم بالتمتع باللذات الحسية النابعة عن أي مصدر من تلك المصادر الأولى، وإن الاستنكار العاطفي الذي يثيره مثل هذا السلوك، لمقياس للجهد الذي اضطر أن يبذله في قهر دوافعه الغريزية.

وفي الوقت الذي يطرد الطفل فيه من ذاكرته كل التجارب اللذيذة التي كانت عزيزة عليه، يدفع بعهد الطفولة كله وما يتصل به من مشاعر وخبرات، بعيداً عن ذاكرته. إنه ينسى ماضيه الذي يتراءى له الآن إذا ما تأمله، شيئاً منفراً عديم القيمة. ولهذا السبب نفسه، يظهر ذلك الفراغ في ذاكرته، وذلك الحاجز المنيع، وذلك العجز عن الوصول

إلى أولى خبرات الطفولة وأعظمها أهمية، تلك التي أدهشتها أي دهش في المحاضرة السابقة.

المحاضرة الثالثة

عهد الكُمُون

لقد أبعدتكم في محاضرتي السابقتين عن ميدان اهتمامكم الخاص، إذ شغلت انتباهكم بالحالات الوجدانية ونمو الغرائز لدى الطفل الصغير، وهو موضوع قد تعتقدون بحق، أن أهميته العلمية تعني فقط الأمهات والمربيات،

وعلى الأكثر مربيات الرياض. ولا أحب أن تعتقدوا – لاختياري تلك المادة التي حاضرتكم فيها – أنني أقلل من تقدير المشكلات التي تظهر في أثناء قيامكم بمهنتكم مع أطفال أكبر سنا من أولئك الذين تكلمنا عنهم. لقد كان هدفي في محاضرتي السابقتين، أن أضع أمامكم كثيراً من الآراء الأساسية لجماعة التحليل النفسي. وكيما أعرضها عليكم في وضوح وجلاء، وجدتني بحاجة إلى مادة محدودة كل التحديد، لا يمكن لغير السنوات الأولى من حياة الطفولة أن تزودني بها.

دعونا الآن نبحث عما أصبتموه من ذلك الذي ألقيته عليكم متصلا بنظريته التحليل النفسي، حتى أبرر به تبريراً نهائياً الطرق غير المباشرة التي دفعت بكم فيها. لقد أكدت من أول الأمر، أن الناس لا يعرفون سوى النزر اليسير من حياتهم الداخلية الخاصة، وأنهم لا يعرفون شيئاً عن الغالبية العظمى من مشاعرهم وأفكارهم التي تدور في خلدهم،

أعني أن كل هذه الأمور تحدث بشكل لا شعوري دون أن يستطيعوا لها إدراكا. وقد تردون على هذا القول بأنه ينبغي لنا أن نكون متواضعين. فليس من الممكن أن يحتفظ الإنسان في شعوره بكل هذه المقادير الهائلة من المؤثرات التي تؤثر فيه من حياته الداخلية والخارجية، والتي يستقبلها ويفسرها. إنه ليكفي أن يدرك الإنسان منها ما هو أكثر أهمية وأعظم أثراً.

ولكن تلك الفجوة العظيمة من الذاكرة التي تختبئ فيها سنوات الطفولة الأولى، تزعزع هذا الرأي؛ فقد رأينا أن أهمية أية حادثة ليست ضماناً لثبوتها في ذاكرتنا، بل على العكس من ذلك، نجد أن أعظم الانطباعات أهمية هي التي تشيح عادة عن تذكرنا إياها. وقد أثبتت التجارب في الوقت نفسه، أن لذلك الجزء المنسي من العالم الداخلي، خاصية الاحتفاظ بقوته الديناميكية إذا ما اختفى من ذاكرتنا، فإنه يؤثر تأثيراً أكيداً على حياة الطفل، ويشكل علاقاته بالناس من حوله، ويثبت وجوده في سلوك الطفل اليومي. وهذه الخاصية المزدوجة لخبرات الطفولة، المتناقضة مع كل ما نتوقعه، أعني اختفاءها وانزواءها في فراغ، واحتفاظها في الوقت نفسه بكل قوى التأثير – هذه الخاصية تعطيكم فكرة طيبة عن الرأي الذي كونه التحليل النفسي عن "اللاشعور".

وإلى ذلك، فقد عرفتم كيف يحدث نسيان الانطباعات الهامة. وقد يكون من المرجح أن يميل الطفل لأن يتذكر بوضوح، رغباته الأولى عظيمة الشأن عنده، وإرضاءه الدوافع التي كان يحرص عليها حرصا

عزيزاً لكنه يستجيب لضغط خارجي، يدفعه لأن يبتعد عن هذه كلها، وينأى بها جانبا، باذلا في ذلك طاقة كبيرة، ويرفض أن يعرف شيئا عنها، وحينئذ نقول إن الطفل "كبتها"[18].

وقد تحقق لكم زيادة على ذلك، أن التربية لم تقر بعد قيام الطفل بعملية الكبت هذه. فمن الواضح أنها تخشى أن تلك الخصائص والصفات التي يُدفع بها جانبا بصعوبة كبيرة، قد تظهر ثانية من الأعماق، إذا ما واتتها الفرص المناسبة، ولذلك فالتربية لا تقنع قط بأن تحطم في الطفل عادة تعدها سيئة، ولكنها تبذل جهدها لإقامة العقبات في سبيل ظهورها ثانية، وبهذا يظهر ما يضاد المشاعر والخصائص الأصلية بالشكل الذي وصفته لكم من قبل.

دعونا نفترض أن طفلا صغيراً في الثانية من عمره، يرغب في أن يضع إفرازه في فمه، إنه يتدرب عن طريق ضغط التربية له، ليس فقط على أن يمتنع عن هذا العمل الذي يبدأ يراه الآن قذراً، ويتبرأ من رغبته الأصيلة، بل يتدرب أيضاً على أن يشعر بالاشمئزاز منه. إن شعورا بالغثيان يبدأ في الظهور الآن عنده متصلا بإفرازه، وميلا لأن يتقيأ، كرد فعل لرغبته الأصلية في أن يضع في فمه شيئاً. إن استخدامه فمه لعمل مثل هذا، يصبح الآن أمرا مستحيلا عليه نتيجة لهذا الشعور بالنفور ويطلق التحليل النفسي على مثل هذه الخاصية المكتسبة، التي تكونت

---

[18] الكبت كلمة اصطلاحية في علم النفس تقابل الكلمة الانجليزية **Repression** ومعناه دفع العقل بحادثة او رغبة أو عاطفة إلى غير ذلك، من شعور الإنسان إلى عقله الباطن. (المعرب)

نتيجة لصراع، وبدت رد فعل لدافع خاص بالطفولة المبكرة اسم :تموين رد فعلي"[19]. وعندما نكشف في الطفل بعد ذلك عن عاطفة خارقة من الرأفة، أو حياء زائد، أو شعور بالغثيان سهل الاستثارة، فإننا نستطيع أن نستنتج من ذلك، أنه كان في سنواته الأولى قاسيا شديد القسوة، أو خاليا من كل شعور بحياء أو خجل، أو قذرا فظيع القذارة في عاداته.

ومن الضروري أن يكون رد الفعل هذا قويا حتى يحول بين الطفل وبين رجوعه ثانية إلى عاداته الأصلية الأولى، ولكن هذا الانقلاب إلى الضد تماما، على شكل التكوين الرد فعلي ليس إلا وسيلة واحدة فقط من الوسائل التي يستطيع الطفل بها أن يبعد صفة من صفاته ويتخلى عنها؛ فهناك وسيلة أخرى، وهي أن يحول السلوك غير المرغوب فيه إلى سلوك آخر مرغوب فيه. وقد ضربت لكم من قبل مثلا على هذا النوع من الوسيلة؛ فالأمر لا يتطلب من الطفل الصغير الذي يستمتع بالعبث بإفرازاته أن يتنازل كلية عن متعته ولذته، كي يتجنب لوم معلميه ومربيه. إنه يستطيع أن يجد بديلا عن هذه اللذة، فيجد مثلا في لعبه بالرمل والماء عوضاً عن اهتمامه السابق باللعب بالإفرازات والبول، وتبعاً لما يتاح له من فرص، يشيِّد أبنية مختلفة في أكوام من الرمل، أو يحفر في

---

(19) التكوين الرد الفعلي كلمة اصطلاحية في علم النفس – **Reaction Formation** ومعناه قيام الإنسان بسلوك مضاد للسلوك الذي يصدر عن دافع مكبوت في عقله الباطن. (المعرب)

الحديقة، أو يشق ترعا. كما تتعلم البنات الصغيرات أن يغسلن ملابس عرائسهن.

وتستمر اللذة التي يستشعرها الطفل من تمزيق الأشياء في استخدامه الأصابع، واستعماله الطباشير الملون – كما أشرنا من قبل – وفي كل فعالية من هذه الفعاليات الاجتماعية التي تحظى برضى الكبار، والتي لا تخلو في الغالب من فائدة، يستشعر الطفل جزءًا من اللذة الأصلية التي خبرها من قبل.

ولقد أطلق التحليل النفسي على عملية تنقية الدافع، وتحويله نحو هدف تراه التربية ذا قيمة أسمى من قيمته الأصلية، اسم "الإعلاء" أو "التسامي" [20].

ومع ذلك فقد استطعتم من المحاضرتين السابقتين أن تحيطوا علماً بما هو أكثر من تعريف بعض الأفكار الرئيسية في التحليل النفسي؛ فقد عرفتم أن هناك أفكاراً ومركبات فكرية[21] تلعب دوراً أساسياً في الحياة الوجدانية للطفل بسبب ترابطها ترابطا تاما. إنها تسود الشعور خلال سنوات معينة من الحياة، ثم تكبت بعد ذلك. ولا يمكن الكشف عنها في

---

(20) بالإنجليزية **Sublimation**

(21) **Idea Complexes** وتعني أية مجموعة من الأفكار المتصلة المترابطة التي يصبغها نوع خاص من الوجدان. وقد يكون المركب الفكري شعورياً، وقد يكبت ويصبح لا شعوريا. وفي هذه الحالة يسمى عقدة. وفي الغالب تستعمل مدارس التحليل النفسي كلمة **Complex** بمعنى المركب المكبوت أو العقدة. انظر علم النفس الجديد لمؤلفه تانزلي **The New Psychology, by A. G. Tansley** الباب الخامس. (المعرب)

شعور الراشد دون بحث وتمحيص زائدين. والمثل على هذا الترابط بين الأفكار هو الصلة بين الطفل الصغير ووالديه.

لقد كشف التحليل النفسي – كما سمعتم من قبل – أن وراء هذه الصلة، توجد الدوافع نفسها، والرغبات عينها، التي أدت إلى أفعال الملك أوديب، وقد أطلق عليها اسم "عقدة أوديب"[22]، ويمكن أن نجد مثلا آخر لهذه المركبات الفكرية في أثر التهديدات التي تلجأ إليها التربية حتى ترغم الطفل على الخضوع لرغباتها ومطالبها. وهدف هذه التهديدات – حتى إن نوه بها مجرد تنويه – هو بتر جزء هام من جسم الطفل، مثل يده، أو لسانه، أو قضيبه، ولذلك أطلق التحليل النفسي على هذا المركب اسم "مركب البتر"[23] أو "عقدة البتر".

وزيادة على ذلك، فقد عرفتم من حديثي الأول، أن الأسلوب الذي به يتأثر الطفل بهذه المركبات الأولى، وخصوصاً بصلاته بوالديه، يصبح نموذجا لجميع خبراته وتأثراته فيما بعد. ويصبح لديه دافع (لا شعوري) ملح يجعله يكرر في حياته بعد ذلك، النموذج الأول لحبه وكراهيته، وجموحه وانقياده، وتمرده وولائه.

---

(22) بالإنجليزية **Oedipus complex**

(23) بالإنجليزية **Castration comple** وهو في الحالة التي تتكلم المؤلفة عنها مكبوت. وقد آثرنا أن نستعمل كلمة البتر بدلا من الخصاء وهي الترجمة الحرفية لكلمة **Castration**، وذلك لأن كلمة البتر أوسع بكثير في مدلولها من كلمة الخصاء التي تعني قطع الخصيتين فقط. (المعرب)

ولا يكون موقف الطفل في الحياة بعد ذلك موقف حياد وعدم اكتراث مع وجود ذلك الدافع الداخلي (اللاشعوري) الذي يدفعه لاختيار أحبائه، وأصدقائه، بل ومهنته، حتى لتكاد أن تتكرر على مسرح حياته خبرات طفولته المكبوتة. وهكذا نقول، كما علمتم من المثال الخاص بالصلة بين التلميذ ومعمليه، إن الطفل "يحوّل"[24] اتجاهاته العاطفية نحو شخص ظهر في حياته الماضية إلى شخص آخر في حياته الحاضرة. ومن الواضح أن يضطر الطفل في غالب الأحوال، لتفسير الموقف الحقيقي الواقعي من جديد، أو لأن يسئ فهمه، وأن يجد أنه لزوما عليه أن يحرفه ويقنعه على أشكال مختلفة كثيرة حتى يجعل هذا التحويل العاطفي أمراً ممكنا.

وأخيراً لمستم في وصفي لنمو الغرائز وتطورها في الطفل تأكيداً للرأي الذي غالباً ما يقرع الأسماع، وهو أن التحليل النفسي يوسع في فكرة الجنسية ويمدها إلى أبعد من حدودها المألوفة حتى الآن. إنه يصف بالجنسية سلسلة من فعاليات طفلية كانت تعد من قبل خالية من الضرر، وبعيدة كل البعد عما هو جنسي.

والتحليل النفسي على العكس من التعاليم التي، تلقيتموها، يؤكد أن الغرائز الجنسية للإنسان لا تستيقظ فجأة بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة من العمر، أي في دور المراهقة، ولكنها فعالة من بدء نمو الطفل، وتتغير بالتدريج من شكل إلى آخر، وتتطور من مرحلة إلى

---

[24] الكلمة الانجليزية **Transfer** . وتسمى الظاهرة "التحويل" **Transference** (المعرب)

أخرى، حتى تنتهي بالحياة الجنسية للراشد في آخر الأمر، نتيجة ختامية لهذه التطورات الطويلة المتتابعة. والطاقة التي بها تقوم الغرائز الجنسية بوظائفها في جميع أشكالها هذه، واحدة دائماً في طبيعتها، ولكنها تختلف من حيث الدرجة باختلاف العهود.

ويسمي التحليل النفسي هذه الطاقة الغريزية باسم "لبيدو" **Libido**. ونظرية تطور الدوافع الطفلية، هي أهم ناحية من نواحي العلم الحديث للتحليل النفسي. وفي الوقت نفسه، فهي التي أثارت منذ بدايتها، شعوراً عدائياً نحو التحليل النفسي ومن المرجح أن تكون هي السبب الذي من أجله وقف الكثير منكم والشك يملؤه، على مسافة بعيدة من نظريات التحليل.

وأرى أن في خلاصة المعرفة النظرية التي حصلتموها الآن عن التحليل ما فيه الكفاية لكم، فقد وقفتم على بعض الأفكار المهمة الأساسية في التحليل النفسي، وعرفتم مصطلحاتها السائدة، ففهمتم فكرة اللاشعور، والكبت، والتكوين الرد فعلي، والنظرية الجنسية الطفلية. وربما تساعدنا كثيرا هذه الأفكار التي كونت حديثاً في فهم واجبنا بعد هذا، وهو دراسة المرحلة الثانية من حياة الطفل.

وسنستمر الآن في دراسة الطفل بدءًا بالعمر الذي وقفنا عنده في بحثنا السابق، وهو الخامسة أو السادسة، الذي فيه يعهد بالطفل للمؤسسات التربوية العامة، والذي ولا شك يثير كل اهتمامكم.

دعونا نفحص – على ضوء المعلومات التي حصلنا عليها الآن – عن شكوى معلمي رياض الأطفال والمدارس من أن الأطفال الصغار يأتون إليهم كائنات بشرية قد أعدت تمام الإعداد. إننا الآن نستطيع أن نؤيد المعلمين كل التأييد في صحة هذا الانطباع من معرفتنا بالحياة الداخلية للطفل فالطفل الصغير، حين يأتي للروضة أو المدرسة لأول مرة، يكون قد اكتسب كثيراً من الخبرات الوجدانية والعاطفية العميقة الأثر. إنه عانى وقوف نزعته الأصلية للأثرة نتيجة لحبه شخصاً معيناً، إنه استشعر رغبة جائشة في امتلاك هذا الشخص المحبوب، وإنه دافع عن حقوقه بسلاح من رغبات الموت التي شعر بها نحو الغير، وبثورات عنيفة من الغيرة وقد أحس في صلته بوالده، مشاعر الاحترام والإعجاب، ومشاعر المنافسة المؤلمة المنغصة مع غريم أقوى منه، كما أحس مشاعر العجز والآثار المحزنة للفشل في الحب، وفوق ذلك فإنه قد مر بمراحل معقدة من تطور الغريزة، وخبر كيف يشق عليه أن يضطر لمواجهة قوى متصارعة في شخصيته.

وقد قاسى الطفل تحت ضغط التربية أنواعاً من المخارف المزعجة، والقلق المرهق، وعانى تغييرات هائلة داخل نفسه. إن الطفل المثقل بماضيه ليس صفحة بيضاء. حقاً إن التبدل الذي حصل فيه لمثير للدهشة؛ فلقد تطور من ذلك المخلوق قريب الشبه بالحيوان، المعتمد كثيراً على غيره، والذي قلما كان يحتمله الغير من حوله – تطور إلى إنسان معقول لحد ما، فالتلميذ حين يدخل الصف (الفصل) يكون مهيأ لأن يدرك أنه واحد ضمن كثيرين، ومنذ ذلك الحين لا يمكن أن يتوقع

لنفسه مركزاً ممتازاً. لقد تدرب بعض الشيء على التكيف الاجتماعي، فبدلا من أن يحاول باستمرار إشباع رغباته الخاصة، كما كان يفعل من قبل، فإنه الآن على استعداد لأن يفعل ما يطلب منه، وأن يجعل مسراته وملذاته مقصورة على تلك الأوقات التي يسمح له فيها بإشباعها، ويبدأ الآن اهتمامه بأن يرى كل شيء، وأن يتعرف على الأسرار الخاصة في محيطه، يتحول إلى ظمأ للمعرفة وحب التعلم، وبدلا من التأملات والتفسيرات التي كان يتوق لها من قبل، فإنه الآن على استعداد لأن يتلقى المعرفة بالحروف والأرقام.

ومن المحتمل، أن يظن الذين يعملون منكم في بيوت الأطفال أنني أصف السلوك الطيب الصالح للطفل في ألوان زاهية شديدة التألق، على نفس المنوال من المبالغة، عندما صبغت لكم في حديثي السابق غرام الطفل باللون الأسود. وقد تشعرون أنكم لم تصادفوا أطفالا صالحين على هذا الشكل من الصلاح ولكن يجب ألا تنسوا أن بيوت الأطفال بالأسلوب الذي تسير عليه الآن، لا تستقبل إلا الحالات التي يظهر منها أن تربية الأطفال الأولى لم تكن مرضية تماما، نتيجة لظروف داخلية أو خارجية.

وعلى العكس من ذلك، يستطيع المعلمون في المدارس العادية أن يتعرفوا على الكثير من تلاميذهم الذين تنطبق عليهم الأوصاف الطيبة التي سردتها الآن، وبذلك لن يتهموني بأية مبالغة، وفي الواقع قد يكون هذا دليلا ساطعاً على ما للتربية من احتمالات عملية، وما لها من تأثير

عظيم. وللآباء والأمهات الذين يمكن – بوجه عام – أن ننسب إليهم تربية الأطفال في مرحلتها الأولى، الحق كل الحق، في أن يمتلئوا فخراً إذا ما حالفهم النجاح في أن يجعلوا من الطفل الصغير، الكثير الصياح، المتعب، القذر، طفلا حسن السلوك في المدرسة. ولن تجد في هذه الحياة ميادين كثيرة يحدث فيها تغييرات وتحويلات مشابهة لما يحدث في ميدان التربية.

وكان يجب أن يزداد إعجابنا ازديادا لا حد له، بالعمل الذي يؤديه الآباء والأمهات، لو لم نجد أنفسنا مضطرين لمواجهة اعتبارين عند الحكم على النتائج التي يتمخض عنها ذلك العمل؛ فكل من سنحت له الفرصة لأن يختلط كثيرا بالأطفال من الثالثة إلى الرابعة، أو باللعب معهم، ليدهش من ثروة خيالهم، وبعد نظرهم، ونباهة عقولهم، ومنطقهم القويم في أسئلتهم واستنتاجاتهم. بيد أن هؤلاء الأطفال أنفسهم، ليظهرون للراشدين الذين يتصلون بهم اتصالا وثيقاً، أغبياء وسطحيين، ومملين بعض الشيء.

ونحن نتساءل مدهوشين: ماذا طرأ على حدة ذهنهم وقوة ابتكارهم؟!! إن التحليل النفسي ليكشف لنا عن أن مواهب الطفل الصغير لم تستطع أن تواجه المطالب المفروضة عليه، وتصبح هذه المواهب بعد انقضاء السنة الخامسة من العمر كأنها لم تكن. وبذلك يظهر لنا أن تنشئة أطفال صالحين أمر لا يخلو من خطورة، إذ أن ما يتطلبه الوصول إلى هذه النتيجة من أنواع الكبت التي يجب أن تحدث، والتكوينات رد

الفعلية، والإعلاءات التي من الضروري أن يلجأ إليها.. كل هذه لا تتم من غير أن يكون لها مقابل؛ فمقابل أن ينشأ الطفل صالحا، يضحى بقوة الابتكار عنده، كما يضحى بجزء كبير من طاقته ومواهبه. وإن نحن رأينا الأطفال الكبر سناً خاملين غير فعالين، بمقارنتهم مع الطفل الصغير، فإن انطباعنا هذا عنهم أمر صحيح تمام الصحة. إن التضييق الذي يفرض على تفكيرهم، والموانع التي تقام في طريق نشاطهم الطبيعي، تسبب خمولهم وعجزهم عن العمل.

وإن نحن لمسنا في هذه الناحية أدنى مبرر للخيلاء العظيم الذي يشمخ به الآباء والأمهات لنجاحهم في تنشئة الأطفال على هذا الشكل، فمن ناحية أخرى، يخالجنا بعض الشك فيما إذا كانوا يستحقون تقديرا كبيرا. وبمعنى آخر، فإنه ليس لدينا من دليل على ما إذا كان السلوك الصالح للطفل الكبير ناشئاً عن تربية والديه، أم أنه مجرد نتيجة لبلوغه مرحلة خاصة من النمو، إذ لا نزال مفتقرين إلى أسانيد يمكن أن نتحقق على ضوئها مما قد يحدث، لو أن الأطفال الصغار تركوا وشأنهم، ينمون ويتطورون دون تدخل أحد في شأنهم. فلا نستطيع أن نعرف ما إذا كانوا ينمون متوحشين صغاراً، أو إذا كانوا – دون مساعدة خارجية – يمرون في سلسلة من التعديلات.

حقا، إن التربية لتؤثر في الطفل من نواح مختلفة تأثيرا عظيما، ولكن السؤال عن ماذا يمكن أن يحدث لو أن الكبار من حول الطفل

كفوا عن التدخل في شأنه بأي شكل من الأشكال؟؟! هذا السؤال لا يزال مفتقراً إلى جواب.

لقد أجريت تجربة مهمة لبحث هذه المسألة وإيضاحها من وجهة نظر التحليل النفسي، ولكن – لسوء الحظ – لم تتم التجربة، فقد أسست عالمة التحليل النفسي الروسية "مدام فيرا شميدت" **Vera Sehmidt** في سنة **1921** مؤسسة أطفال(25) في موسكو، جمعت فيها ثلاثين طفلا تتراوح أعمارهم بين الأولى والخامسة، وقد صبغها الاسم الذي أطلقته عليها، وهو "مختبر بيت الأطفال" بصبغة المراكز التجريبية العلمية. وكان هدف "مدام شميدت" أن تحيط هذه المجموعة من الأطفال بمعلمات مدربات تدريباً علمياً، يكلفن بالقيام بملاحظات عن كثب للمظاهر الوجدانية والغريزية المختلفة. وبالرغم من أنه كان لهن أن يساعدن الأطفال، ويحفزهم، فما كان لهن أن يتدخلن إلا بقدر ميسور في التغييرات التي تحدث فيهم. وبهذه الطريقة، كان من الممكن أن يعرف بالتدريج إذا ما كانت المظاهر المختلفة التي تتتابع في سنوات الطفل الأولى تحدث من تلقاء نفسها ثم تختفي دون تأثير تربوي مباشر، وأيضاً إذا ما كان الطفل يهجر نشاطه اللذيذ، ومصادر لذته بعد مرحلة معينة، ويستبدل بها أنواعا أخرى جديدة.

---

(25) **Children's Home**

ولمصاعب خارجية، لم يدم مختبر بيت الأطفال للسيدة "فيرا شميدت" مدة كافية لإتمام هذا النوع الجديد من التجربة التربوية، اللهم إلا لطفل واحد.

وعلى ذلك لا يزال السؤال: إلى أي حد ترجع التغييرات في الطفل إلى تربيته الأولى دون تأثير أي عامل آخر؟؟ لا يزال بحاجة إلى بحث وجواب، حتى يستطاع القيام مرة أخرى بتجربة مشابهة في ظروف أكثر ملاءمة.

وسواء أكانت هذه الظاهرة ترجع إلى تدريب الآباء والأمهات للطفل، أم تعد خاصية حتمية لتلك المرحلة من الحياة، فإن ملاحظاتنا تعلمنا – على كل حال – أن القوة الطاغية للغريزة الطفلية تمحى في بطء. وعندما يصل الطفل إلى الرابعة أو الخامسة من عمره. يكون قد جاوز الحد الأقصى لمظاهر انفعالاته العنيفة، ورغباته الغريزية الملحة. ويصل الطفل بعد ذلك تدريجياً إلى حال من الوداعة والهدوء، ويتراءى لنا كأنه قد وثب وثبة كبيرة في سبيل بلوغه الرشد الكامل شأنه في ذلك، شأن الحيوان، لا يزال ينمو ويترعرع منذ أن يولد إلى أن يبلغ النضج من غير انقطاع، وبعد ذلك يزول كل احتمال للتغيير. ولكن الحال مع الطفل مختلف تماما عن هذا، إذ يقف فجأة نمو الطفل الغريزي في الخامسة أو السادسة من عمره دون أن يكون قد وصل به إلى مرحلة حاسمة. إنه يفقد اهتمامه بإرضاء غرائزه التي أدهشتنا أول الأمر في حياته وهو

صغير. إنه يصبح الآن ولأول مرة قريب الشبه بصورة الطفل الصالح التي – حتى هذا العهد – لم توجد إلا في مخيلة الكبار وأمانيهم.

ولكن الغرائز التي دفعت الطفل لأن يرضيها حتى الآن بشتى الطرق لم تنقطع عن الوجود. إنها تصبح فقط أقل وضوحا من حيث نشاطها الخارجي.. إنها تصبح كامنة نائمة، متحفزة لأن تستيقظ ثانية بقوة متجددة بعد عدد من السنين. وهكذا يظهر عهد البلوغ، الذي كان يعد العهد الذي تبدأ فيه المشاعر الجنسية، صورة طبق الأصل لنمو قد أضحى في الحقيقة كاملا الآن، بيد أنه بدأ منذ الولادة، ثم وقف عند نهاية العهد الأول من حياة الطفولة.. وإذا تتبعنا نمو الطفل من ذلك العهد الأول خلال هذا العهد الهادئ، عهد الكمون – كما يسميه التحليل النفسي – إلى عهد المراهقة، نجد أن الطفل يستشعر ثانية – بصورة جديدة مطابقة للصورة الأولى – جميع المصاعب القديمة التي ظلت كامنة نائمة..

إن المواقف الوجدانية التي أثارت أنواعا خاصة من الصراع وهو طفل صغير، مثل منافسته لأبيه، أو الكبت الفظيع للذة محرمة عليه، (ربما تكون حب القذارة)، لتتجدد ثانية بقوة متفجرة، مسببة له مصاعب خارقة. وهكذا يبدو – في أغلب الأحايين – أول عهد في حياة الطفل، سبيها جداً بعهد البلوغ، حتى في أدق التفاصيل. ومع ذلك يماثل الطفل في عهد الكمون الأكثر هدوءا، الراشد المعقول المتزن من وجوه كثيرة.

وهنا نجد ثانية أن التربية قد سلكت سلوكها من عهد سحيق، كما لو كانت موجهة بتفهم سيكولوجي كبير لحياة الطفل الداخلية. إنها تستخدم عهد الكمون – الذي لم يعد الطفل فيه مشغولا انشغالا كليا بصراعاته الداخلية، والذي يقل فيه إقلاق الغريزة له – للبدء بتدريب فكر الطفل وشحذ قواه العقلية. وقد سلك المعلمون سلوكهم في المدارس منذ أن بدأ التعليم من قديم الزمن، كأنهم فطنوا إلى أن الطفل في هذا العهد يكون أقدر على التعليم، كلما كان أقل استسلاماً لغرائزه. ولذلك كانوا ينزلون أشد العقاب، ويعاملون بالقسوة كل طفل في المدرسة يعمل على إعلان رغباته الغريزية، أو يحاول إرضاء لذاته.

وهنا تتباين واجبات المدرسة وواجبات بيت الأطفال (الهورت)، فواجب المدرسة فوق كل واجب، هو الثقافة – أعني إنماء العقل، وإعطاء أفكار جديدة ومعرفة، واستثارة القدرات العقلية. وبخلاف ذلك، فإن واجب بيت الأطفال هو إتمام تهذيب الدوافع التي لا يكون قد تم تهذيبها في العهد الأول من الطفولة. ويدرك المربون في بيت الأطفال أن ما يملكون من وقت لذلك، ووقت محدود. إنهم يعلمون أن الغريزة الجنسية، التي تتدفق من جديد في عهد البلوغ فتطغى على الطفل بشدتها وجبروتها، تحدد أيضاً نهاية قابليته للتربية. وفي حالات كثيرة، يعين النجاح أو الفشل في هذه التربية المتأخرة، إمكان عقد اتفاق معقول من الخارج في هذا العهد المتأخر، بين ذات الطفل من جهة، أي إلحاح دوافعه، ومطالب المجتمع من جهة أخرى.

وإنكم لترغبون أخيراً في أن تعرفوا كيف تقف إمكانيات التربية في عهد الطفولة المبكرة، وإمكانياتها في عهد الكمون، إحداها بالنسبة للأخرى. هل هناك فرق بين موقف الطفل الصغير تجاه والديه، وموقف الطفل الأكبر تجاه معلميه وموجهيه؟ هل كل ما هنالك أن المعلم يرث دور الوالدين، وهل يجب أن يلعب دور الأب والأم، ويستعين كما يفعلان بتهديدات البتر، والتخويف من فقدان الحب ومظاهر العطف والحنان؟..

إننا كلما فكرنا في المشاكل التي عانى الطفل منها ما عانى عندما كان مركب أوديب في أوجه، نجدنا على حق إذا ما أشفقنا من أن يقاسي الأطفال في الصف صراعات مماثلة، بل وربما مضاعفة مرات كثيرة، في أثناء تفاعلهم مع العلم. وليس من الممكن أن نتخيل معلمة تلعب دور الأم بنجاح في بيت كبير للأطفال، فتهتم في حكمة بمطالب كل طفل، دون أن تؤجج نيران الغيرة في كل جانب. وكذلك من الصعب على المعلم الذي هو بمثابة أب لكثير من الأطفال، أن يبقى دائماً مصدراً للخوف، وهدفا لكل هاتيك الدوافع الثائرة، وفي الوقت نفسه يكون صديقاً شخصياً لكل طفل.

ولكننا ننسى أن حياة الطفل الوجدانية قد عانت في الوقت أيضاً شيئاً من التغيير، فلم تعد صلاته بوالديه على حالها الأول فكما تبدأ الغرائز الطفلية تضعف في هذه المرحلة من الحياة (مرحلة الكمون) كذلك تبدأ مشاعر الطفل الشهوانية التي كانت سائدة حتى الآن – تبدأ هي

الأخرى في الضعف والإضمحلال ومرة أخرى لا نستطيع أن نجزم بما إذا كان هذا التغيير يماثل دوراً جديداً من النمو يلجه الطفل في هذه السن، أو إذا كانت مطالب الحب الشهواني للطفل تخضع تدريجاً للأوهام الكثيرة التي لا مناص منها، وللتحريم الذي يفرضه الولدان وعلى كل حال، تصبح العلاقة بين الطفل ووالديه أكثر هدوءًا أو أقل حرارة، وتفقد خصوصيتها. ويبدأ الطفل ينظر إلى والديه نظرة أكثر تعقلا واتزاناً، ويبدأ يصحح تقديره الخارق لأبيه، الذي كان يعده حتى الآن قادراً على كل شيء. ويبدأ يرى الأشياء بمقاييسها الصحيحة، وبدلا من حبه لأمه الذي كان في الطفولة الأولى يكاد يكون مماثلا لحب الراشد من حيث حرارته واشتياقه ونهمه، يظهر الآن حنو يثير مطالب أقل، ويكون أكثر ضبطاً واتزاناً..

وفي الوقت نفسه يحاول الطفل أن يحظى بقدر معين من التحرر من والديه، ويبحث مستقلا عنهما، عن أشياء جديدة يسبغ عليها حبه وإعجابه. وهكذا تبدأ الآن عملية انفصال تستمر طوال مرحلة الكمون. فإذا ما زال اعتماد الطفل على أحبائه في عهد الطفولة بانتهاء دور المراهقة، فإن ذلك يكون علامة طيبة على نموه نمواً سليماً مرضياً. وفي هذا العهد، تصل الغريزة الجنسية إلى مرحلة الرشد التناسلي، بعد أن تكون قد مرت بجميع المظاهر المتتابعة المتداخلة مروراً ناجحاً. ويجب أن تتصل الآن بحب شخص آخر لا يمت إلى أسرة الناشئ بصلة.

ولكن انفصال الطفل هذا عن أول وأهم من اتصل بهم بعاطفة الحب، يحدث بشرط واحد محدد تمام التحديد: وهو كأن والديه يقولان له "يمكنك حقاً أن تذهب بعيداً، ولكن يجب أن تأخذنا معك". أعني أن تأثير الوالدين لا ينتهي ببعده عنهما، حتى ولا بخمود مشاعره نحوهما. وإنما يتحول فقط من تأثير مباشر إلى آخر غير مباشر.

إننا نعرف أن الطفل الصغير يطيع أوامر أبيه أو أمه إذا كان يعيش بين ظهرانيهما. وكان يخشى تعنيفاً مباشراً، أو تدخلا شخصياً منهما، وأنه ليجري وراء رغباته الخاصة دون أي تردد لو ترك وحيدا. بيد أن سلوكه هذا يتغير بعد سنته الثانية أو الثالثة. حينئذ يعرف الطفل، عندما يغادر الشخص المتسلط عليه الحجرة، ما هو مباح له وما هو محظور عليه. وتبعاً لذلك ينظم أفعاله ويرتب سلوكه. وبذلك نقول قد نما في الطفل دافع داخلي يوجه سلوكه، فضلا عن القوى التي تؤثر عليه من الخارج.

وليس هناك من شك لدى علماء التحليل النفسي في أصل هذا الصوت الداخلي أو الضمير، كما يسمى عادة. إنه استمرار لصوت والديه الذي يؤثر فيه الآن من الداخل بدلا من الخارج، كما كان يفعل من قبل. وكأن الطفل قد امتص جزءًا من أبيه أو أمه، أو بالأحرى تشرب الأوامر والنواهي التي كان يتلقاها منهما باستمرار، وجعلها جزءًا أساسيًا في تكوينه وشخصيته. وفي أثناء نمو الطفل يتزايد تدريجاً تمثيل هذا الجزء الوالدي المكتشف فيه، لدور أبويه في الحياة المادية، مطالباً إياه

بأشياء معينة ومانعا عنه أشياء أخرى. وحينئذ تستمر تربية الطفل من داخله، بعد أن أصبح مستقلا عن والديه الحقيقيين. ويمنح الطفل لذلك الجزء من كيانه، الذي أتاه في الأصل من الخارج، مركزاً ممتازاً جداً في ذاته الخاصة، ويعده مثلا أعلى؛ ويصبح مستعداً للخضوع له بشكل يكون في الغالب أكثر ذلة واستكانة، مما كان عليه في أيامه الأولى، عندما كان خاضعاً لوالديه الحقيقيين.

ومنذ ذاك تعمل الذات المسكينة على إرضاء مطالب هذا المثل الأعلى، أو "الذات العليا[26]" كما يسميها علماء التحليل النفسي. وإذا لم يقدم الطفل فروض الطاعة لهذه الذات العليا، يشعر بسخط داخلي، وإذا فعل كما تريده منه أن يفعل، شعر برضا داخلي وهكذا تستمر الصلة بين الطفل ووالديه داخل نفسه. وتنعكس الشدة أو اللطف الذي عامل به الوالدان الطفل، على اتجاه الذات العليا نحو الذات.

ونستطيع إذا رجعنا إلى الوراء أن نقول، إن الثمن الذي يتحتم على الطفل أن يدفعه مقابل انفصاله عن والديه، هو امتزاجهما بشخصيته الخاصة. وفي الوقت نفسه فإن نجاح هذا الامتزاج مقياس للنجاح الدائم للتربية. وبذلك لا يكون من الصعب الآن الإجابة عن سؤالنا الخاص بالفروق بين ما يمكن أن تكون عليه التربية في العهد المبكر للطفولة، وفي عهد الكمون.

---

[26] بالإنجليزية Super-go (المعرب)

إن المربين الأول، والطفل الصغير في عهد الطفولة الأولى، يقفان على طرفي نقيض، حزبين متعاديين. فالوالدان يريدان شيئاً لا يرغب الطفل فيه، والطفل يريد شيئا لا يرغب الوالدان فيه. ولكن الطفل يعمل على تحقيق أهدافه بحرارة كلية غير منقسمة. ولا يبقى لدى الوالدين سوى التهديد والوعيد واستعمال العنف. وهنا تبرز وجهة نظر تضاد وجهة نظر أخرى على خط مستقيم، ويرجع كسب الوالدين المعركة دائماً تقريباً، إلى تفوقهما في القوة الجسدية على قوة الطفل.

ويختلف الموقف اختلافاً كلياً في عهد الكمون؛ فلم يعد الطفل الذي يوجهه المربي الآن، كائناً بسيطاً غير منقسم. إنه كما عرفنا من قبل منقسم في داخل نفسه. وحتى إذا استمرت الذات أحيانا تحقق أهدافها الأولى، فإن الذات العليا، وهي خليقة بالوالدين، تبقى إلى جانب المربين. ويتوقف مدى الاحتمالات التربوية على حكمة الراشدين، فالمربي الذي يعامل الطفل كأنه لا يزال عدواً لدوداً له، يسلك بذلك سلوكا خاطئا، ويفقد ميزة عظيمة الأثر. إنه بحاجة فقط لأن يدرك الانشقاق الذي حصل داخل الطفل، ويكيف نفسه له. فإذا نجح في أن يكسب الذات العليا إلى جانبه، وفي أن يتحالف معها، يتآزر بذلك عاملان اثنان ضد عامل واحد. ولن يلقى أية مشقة في التأثير في الطفل بأي شكل يريد.

والآن، تصبح الإجابة على السؤال الخاص بالعلاقات بين المعلم والصف أو مجموعة الأطفال، أكثر سهولة ويسرا إذ نرى مما ذكرنا من قبل، أن المعلم يرث أكثر من مجرد مركب أوديب الخاص بالطفل. فطالما

تسلط المعلم على توجيه مجموعة من الأطفال، فإنه يتمثل لكل واحد منهم كأنه ذاته العليا. وبذلك يكون صاحب الحق في خضوع الطفل له وانقياده إليه. أما إذا قام بدور الأب فقط لكل طفل، فإن جميع أنواع الصراعات الخاصة بالطفولة الأولى، التي لم تحظ بتوفيق وحل، تظهر من حوله. وزيادة على ذلك يدب دبيب الشقاق بين أطفاله نتيجة لغيرتهم الواحد من الآخر. أما إذا نجح في أن يجعل من نفسه الذات العليا العامة لهم، أو المثل الأعلى لهم جميعاً، فإن خضوعهم الاضطراري له، يتبدل إلى خضوع عن رغبة وإرادة منهم. ويصبح أطفال مجموعته متساندين تحت لوائه في كل واحد موحد.

المحاضرة الرابعة

علاقة التحليل النفسي بالتربية

> يجب ألا يطالب أحدنا الآخر بالشيء الكثير، ولذلك ينبغي ألا تتوهموا أنني سأنجح في أربع محاضرات قصيرة، في أن أعطيكم أكثر من أهم المبادئ لعلم تتطلب دراسته سنوات طويلة. ومن جهة أخرى،

فإنني لا أستطيع أن أتوقع أن تتذكروا جميع التفاصيل التي عرضتها عليكم. وقد لا يكون في وسعكم أن تحتفظوا من بين هذه الخلاصة التي استخلصتها وركزتها من جم غفير من الأسانيد، والتي لذلك قد تكون مبلبلة لكم في الغالب، إلا بثلاثة من الآراء المميزة للتحليل النفسي التي يمكن أن تنير لكم الطريق في مهنتكم.

وأول هذه الآراء يختص بتقسيم الحياة؛ فالتحليل النفسي كما عرفتم يميز ثلاث مراحل مختلفة في حياة الطفل: مرحلة الطفولة المبكرة التي تمتد حتى نهاية السنة الخامسة من العمر، ومرحلة الكمون التي تمتد بعد ذلك إلى أوائل دور المراهقة، أي إلى نحو الحادية عشر، أو الثانية عشر، أو الثالثة عشر من العمر، وعهد البلوغ الذي يمتد إلى حياة الرشد. ونلحظ في كل مرحلة من هذه المراحل، استجابة عاطفية من الطفل نحو من يعيشون معه، وعهداً من النمو الغريزي، يختلفان عن

نظيريهما في المرحلتين الأخريين، ويعد كل منهما سوياً ومميزاً للمرحلة. ولذلك لا نستطيع أن نصدر حكما على خاصية مميزة للطفل، أو على أسلوب من أساليب استجابته، دون أن نشير إلى مرحلة النمو الخاصة من حياته، فإذا لاحظ الإنسان مثلا، فعلا تبدو فيه القسوة الغريزية، أو عدم الشعور بالخجل – وكل منهما خاص بمرحلتي الطفولة المبكرة والبلوغ – إذا لاحظ الإنسان هذا الفعل في عهد الكمون، فإنه يثير قلقه. أما إذا لاحظه في حياة الرشد، فقد يضطر للحكم عليه بأنه سلوك شاذ. وإن صلة الطفل القوية بالوالدين، وهي طبيعية ومرغوب فيها خلال العهد الأول من الحياة، وفي أثناء عهد الكمون – هذه الصلة القوية تصبح علامة على تأخر في النمو، إن هي استمرت في البقاء على حالتها الأولى عند نهاية دور البلوغ. والدافع الملح للثورة والتمتع بحرية داخلية، وهو في دور البلوغ، يمهد لوصول الإنسان إلى حياة الرشد السوية – هذا الدافع يعد عائقاً عن النمو الصحيح للذات في الطفولة المبكرة وفي عهد الكمون.

ويختص الرأي الثاني بالنمو الداخلي للشخصية الطفلية، فلربما تصورتم حتى الآن، أن الطفل الذي تعالجونه طفل منتظم متجانس. ومن أجل ذلك لم تستطيعوا أن تفسروا الفرق بين ما يريد أن يفعله، وما يستطيع أن يفعله، أي لم تستطيعوا تفسيراً للتضارب بين نياته وأعماله. ولكن فكرة التحليل النفسي تبين لكم شخصية الطفل مكونة من قوى ثلاث هي: الحياة الغريزية[27]، والذات، والذات العليا التي تشتق

[27] المقصود بالحياة الغريزية هنا الذات الواطئة، أو ما تسمى بالاسم "هي" أو بالانكليزية **Id**. (المعرب)

وجودها من صلاته بوالديه. وعلى ذلك يمكن تفسير التناقض في سلوكه إذا فطنتم إلى تمييز ذلك الجزء من كيانه السائد في وقت معين، والذي تصدر عنه استجاباته المختلفة.

أما الرأي الثالث، فإنه يختص بالتفاعل بين هذه الأقسام من الشخصية الطفلية؛ ويجب ألا نتصور هذا التفاعل عملية سلمية، بل إنه الصراع. وتتوقف نتيجة هذا الصراع، بين ذات الطفل ورغبة غريزية يعلم أنها منكرة – على قوة اللبيدو (الطاقة) الواقعة تحت إمرة الدوافع الغريزية، بالنسبة إلى طاقة القوة الكابتة المستمدة من الذات العليا.

إني لأخشى، حقاً، ألا تمدكم هذه القواعد الثلاث للتطبيق العملي، التي شرحتها لكم بإيجاز، بكل ما أملتم أن تحصلوا عليه من التحليل النفسي للاستعانة به في عملكم. إذ الأرجح أنكم تريدون نصيحة عملية، تكون بمثابة المرشد الموجه لكم أكثر من توسيع معلوماتكم النظرية. ومن المؤكد أنكم تريدون أن تقفوا على أفضل طرائق التربية للسير بمقتضاها؛ وعلى أي الطرائق التي يجب الإعراض عنها الإعراض، إذا ما أردتم ألا يهدد النمو الكلي للطفل أي خطر. وفوق هذا كله، فلابد أنكم راغبون في أن تعرفوا ما إذا كان الواجب يقضى علينا بأن نولي الطفل قسطاً أوفر من التربية، أو أن نستعين منها بمقدار أقل مما كان يستعان به في الماضي.

وللإجابة على السؤال الأخير، يجب أن أذكر أن التحليل النفسي يسفر دائماً عن رغبته في تحديد نطاق التربية وتضييقه كلما اتصل بها،

فقد أبان لنا الخطر الناشئ عن التربية، وعينه وحدده تحديداً كاملا. وقد عرفتم كيف يُقسر الطفل على تلبية مطالب الراشدين من حوله؛ وعرفتم أنه يتغلب على علاقاته العاطفية القوية الأولى، بتقمصه دور الراشدين الذين يحبهم ويخافهم، وتشربه إياهم إنه يتهرب من سلطانهم الخارجي عليه. ولكنه، في الوقت نفسه، ينشئ محكمة داخل نفسه، ويشكلها على هيئة نفوذ هؤلاء الراشدين، وبذلك تعمل على بقاء واستمرار ذلك السلطان والنفوذ داخل نفسه.

وهذا التشرب الداخلي للوالدين وسلطتهما هو الخطوة الخطيرة، فعندما يتم ذلك تصبح النواهي والأوامر ثابتة لا تتغير، إذ بدلا من أن يكون الوالدين مخلوقين حيين، يصبحان أثراً تاريخياً عاجزاً عن أن يكيف نفسه للتغيرات الخارجية المطردة، بينما كان يمكن في الحياة الواقعية أن يسيطر العقل والروية على سلوك الوالدين واتجاهاتهما إزاء الطفل، وبذلك يستطيعان أن يواجها بنجاح، مطالب وضروريات أي موقف جديد. فمثلا، يكون أمراً طبيعياً، أن يبيحا للرجل في الثلاثين، ما كانا يمنعانه عنه طفلا في الثالثة من عمره. ولكن ذلك الجزء من الذات الذي كونته مطالب الوالدين ومثلهما، يبقى سراً مجهولاً[28].

وتوضح الأمثلة الآتية النقاط التي ذكرناها:

إني أعرف ولداً كان مغرما بالحلوى غراما شديداً في سنواته الأولى؛ ولما كانت شهوته للحلوى عظيمة جداً، فإن الطفل لم يستطع أن

[28] انظر تعريف التربية في صفحة 56 (المعرب)

يشبعها بالطرق المشروعة، ولذلك لجأ إلى جميع صنوف الطرق والحيل غير المشروعة للحصول عليها؛ فكان يصرف لذلك كل ما يملك من نقود، ولم يكن يهمه أن يتخذ أي سبيل للحصول على المزيد منها. وأخيراً لجئ إلى التربية لحل هذا الموقف، فحرم على الطفل أكل الحلوى، وتأكد التحريم بشكل خاص، نتيجة لاشتراك أمه فيه، وكان الطفل يحبها حباً عظيماً. واختفى غرامه الفائق بالحلوى. وارتاح والده لذلك ارتياحاً كثيراً... ولكن الآن، وقد أصبح الطفل بالغاً، يملك الكثير من النقود، ويحظى بالحرية في أن يشتري جميع الحلوى من دكاكين فينا، فإنه لا يستطيع أن يأكل قطعة واحدة من الشيكولاتة دون أن يحمر وجهه احمرارا زائداً!..

إن كل من يلاحظه وهو يفعل ذلك، يستطيع أن يستنتج على التو، أنه يأتي عملا إذًا، ويقوم بسلوك حرام، وكأنه يأكل أشياء قد ابتيعت بمال مسروق. وتلاحظون من ذلك أن التحريم الذي فرض عليه في طفولته، لم يتكيف آلياً للموقف الجديد المغاير لما كان عليه من قبل.

وانتبهوا ثانية إلى مثل آخر أقل خطورة من المثل السابق: ولد يحب أمه حبا كله حنان وعطف. إن جميع رغباته لتتجه نحو أن يملأ المكان الذي يشغله أبوه في الواقع، ونحو أن يكون موضع ثقتها، وحاميها، وأحب أحبائها. ولكن الطفل في هذا الموقف، يقاسي آلاما مستمرة، من إدراكه أن والده هو صاحب الحق الشرعي في المكانة التي يسعى إليها. إن لأبيه هذا، القدرة على أن يبعده عن أمه في أي وقت يشاء، وعلى أن

يشعره بضعفه الطفلي وعجزه إزاءه إن السد الذي يقف بينه وبين أن يرنو إلى مركز أبيه، ليزداد مناعة، نتيجة خوفه من قوة أبيه وسلطانه. وبعد أن أصبح شابا بعد سنين، فإنه يظهر جبنا وترددا شاقين مؤلمين يقفان في سبيله، ويجعلان مركزه محرجا لا يحتمل، إذا ما وجد نفسه في منزل واحد مع الفتاة التي يهواها. وأصل هذا الجبن والتردد، هو أن أحدا من الناس قد يأتي ويعلن أن المنزلة التي يحلها ذلك الشاب من فتاته، تخص شخصاً آخر غيره، وأنه ليس له أدنى حق فيها. ولكي يتجنب هذا الموقف شديد الإيلام، فإنه يستنفد جزءا كبيرا من طاقته وتفكيره في إعداد الأعذار التي يمكن بها أن يفسر وجوده في المنزل تفسيرا مقبولا لذلك الشخص الآخر.

ودونكم مثلا آخر: بنتاً صغيرة تستشعر سروراً عظيما من جسمها المعرَّى، وتظهر أمام إخوتها وأخواتها عريانة، وتمتلئ بهجة من جريها في الحجرات ولا شيء على جسدها، قبل أن تأوي إلى مخدعها لتنام. هنا تتدخل التربية وتؤثر في الموقف تأثيراً ناجحاً؛ إذ تضطر البنت لأن تبذل مجهوداً زائداً في كبت رغبتها هذه وتكون النتيجة شعوراً فائقاً بالحياء يلازمها بقية حياتها. فإذا ما حان الوقت الذي تختار فيه مهنة تشتغل فيها، واقترح عليها أن تعمل في مهنة تستلزم مشاركتها بعض رفيقاتها حجرة مثلا. فإنها تعلن دون تردد أن هذه المهنة لا تصلح لها. ولكنا نكشف في ثقة، وراء الدافع الذي بررت به رفضها المهنة، عن الخوف من أنها قد تضطر لأن تخلع ملابسها في حضور آخرين. وليس

لأمر تهيئها أو تفضيلها لمهنة خاصة، أثر يذكر بجانب قوة التحريم التي حملتها معها منذ طفولتها.

ويتعرف المحلل النفسي في أثناء قيامه بوظيفته العلاجية الخاصة بتحليل مثل هذه القوى المانعة المحرمة المزعجة التي تتكون في أثناء النمو – يتعرف ولا شك، على التربية من أسوأ جانب لها. إنه يشعر أن المربين كانوا يرمون العصافير بقنابل مدفعية!! أما كان الأفضل يا ترى، أن نقلل نوعا ما من اهتمامنا بالتقاليد والذوق العام في هذه المنازل المختلفة، ونسمح لأول طفل في الحالات التي ذكرناها أن يكون جشعاً، وللثاني أن يتخيل نفسه في مكانة أبيه؛ ونسمح للطفلة الثالثة بأن تجري هنا وهناك عريانة؟[29]

وهل كان ينتج يا ترى عن السماح للطفل بأن يرضي رغباته وأمانيه، أثر ضار ذو بال إذا قورن بالضرر الناتج عما يسمى "بالتربية الصالحة"؟ قارنوا بين رغبات الطفل، وبين الانقسام الذي يحدث في شخصيته الطفلية، أي قيام جزء من نفسه ضد جزء آخر. تأملوا كيف تتضاءل قابليته للحب، وكيف ينمو الطفل تبعاً لذلك، عاجزاً عن الاستمتاع بأعماله في الحياة، وعن أدائها. إن المحلل النفسي الذي يتضح له كل هذا، يصمم من ناحيته الخاصة، على ألا يكون سنداً لمثل هذه التربية، ويفضل أن يترك أطفاله أحراراً، على أن يتعهدهم بمثل هذا النوع

[29] نجد في النسخة الإنكليزية بعد هذا "وللرابع أن يعبث بأعضائه التناسلية" بينما لا نجد أي ذكر لحالة رابعة من قبل. وأخشى أنه كان هناك مثل رابع سقط عفوا في الترجمة الإنكليزية، وقد حاولت الحصول على الكتاب في لغته الأصلية الألمانية لكي يتسنى لي مراجعة الترجمة الإنكليزية عليه فلم أستطع ذلك. (المعرب)

من التربية. إنه يرى أن يخاطر بأن ينتهي الأمر بهم، فيكونوا من غير ضابط لحد ما، بدلا من أن يفرض عليهم منذ البداية ذلك النوع من التربية الذي يشل فرديتهم وشخصيتهم.

إنكم ولا شك مدهوشون لآرائي المتحيزة لوجهة نظر واحدة، ولقد حان الوقت لأن أغير من موقفي هذا؛ فالتربية تظهر لنا على شكل آخر، إذا نحن تطلعنا إلى هدف آخر. مثلا عندما تعنى بالطفل المهمل بالشكل الذي يعالجه به أوجست أيخهورن (**August Aichhorn**) في كتابه "شباب مهمل" (**Neglected Youth**).

يقول أيخهورن، أن الطفل المهمل يأبى أن يتخذ له مكانا في المجتمع. إنه يعجز عن أن يضبط دوافعه الغريزية ويتحكم فيها. إنه لا يستطيع أن يحوِّل جزءًا كافياً من طاقة غرائزه الجنسية لكي يوجهها إلى تحقيق أهداف يقدرها المجتمع، ويحلها محلا أسمى من الأهداف الطبيعية لتلك الغرائز. إنه لذلك يرفض الخضوع للقيود التي تفرض على المجتمع الذي يعيش فيه. ويرفض كذلك أن يسهم في حياة المجتمع ووظائفه، وما من أحد يأخذ مثل هذا النوع من الطفل بالتربية أو التحليل النفسي إلا ويشعر بالأسى، لأنه – إبان طفولته – لم تنجح معه أية قوة خارجية في تقييد حياته الغريزية وضبطها، بشكل يتسنى به أن تستحيل هذه القوة تدريجيا إلى قيود وضوابط داخلية.

خذوا مثلا طفلة شغلت اهتمام محكمة الأطفال في فيينا حيناً من الزمن، لقد كانت هذه البنت البالغة من العمر ثماني سنوات، ميؤوساً منها

في المترل والمدرسة على حد سواء. فكانت، إذا ألحقت بمعهد تعليمي، أو بمعهد للنقهاء لا تطاق فيه مدة أكثر من ثلاثة أيام، ترسل بعدها ثانية دون تردد، إلى مترل والديها. لقد رفضت أن تتعلم شيئا، أو أن تشترك في فعاليات الأطفال الآخرين وكانت تتظاهر بالغباوة بمهارة فائقة، حتى عدها بعض المعاهد ناقصة العقل ففي أثناء الدروس كانت ترقد على "التختة" وتعبث بأعضائها التناسلية وإذا ما حاول أحد أن يمنعها من ذلك، ويقطع عليها نشاطها هذا، صرخت صراخا وحشياً فظيعاً، يخيف الراشدين من حولها. أما في المترل، فكانت تعامل أسوأ معاملة، ولم يكن لدى أبويها فكرة عن طريقة في معاملتها سوى ذلك. وقد أدت البحوث التحليلية في حالة هذه البنت إلى إظهار أمرين: أولهما أن الظروف الخارجية كانت غير ملائمة مطلقاً لنمو أي نوع من الصلات العاطفية بين الطفلة ومحيطها؛ إذ لم يستطع أي شخص ان يسبغ عليها حباً يعوضها بشكل من الأشكال، عن تضحيتها باللذة التي كانت تستشعرها من جسمها. وثاني الأمرين اللذين أبانهما التحليل، أن العقوبات الشديدة التي كان الأبوان يوقعانها على البنت، مؤملين طبعاً أن تكون قوة رادعة لها،لم تحقق هدفهما هذا، فلقد ظهرت في البنت الصغير ميول ماسوشية "**Masochistic Tendencie**"[30] قوية، إما نتيجة لاستعدادها الطبيعي الخاص، أو نتيجة لخبراتها الأولى العميقة الثر.

---

[30] "الماسوشية" **Masochism** ظاهرة تبدو جلية في بعض الناس الذين نجدهم يتلذذون من الآلام؛ فتعذيبهم والقسوة عليهم يمدانهم بالراحة. ومقابل هذه الظاهرة، نجد ظاهرة "السادية" **Sadism** التي تشاهد على بعض الناس الذين يتلذذون من القسوة على الغير وتعذيبهم وإيلامهم. ويرى فرويد وأتباعه أن هاتين الظاهرتين تتصلان بالغريزة الجنسية في بعض الحالات، وبما يسمونه "غريزة الموت" في حالات أخرى. والكلمة "ماسوشية" مشتقة من

ولذلك أصبح كل عقاب بالضرب يوقع عليها، مهيجاً جديداً للشهوة الجنسية وللسلوك الجنسي. قارنوا هذه الحالة من حالات الإهمال، بحالة الكبت التي شرحتها من قبل. إنكم تستطيعون أن تروا أنه لا يمكن أن يبرز من مثل هذين الطفلين، إنسان حر يعتمد على نفسه. إن هذه البنت ليست إلا حيواناً صغيراً ذليلاً، قد وقف نموها الخلقي، في الوقت نفسه الذي وقف فيه نموها العقلي.

ويذكر أيخهورن في كتابه "شباب مهمل" حالة شديدة أخرى من حالات النمو الشاذ خاصة بولد كان منذ السادسة من عمره، يرضي جميع أنواع الرغبات الجنسية مع أمه وأخيراً عاشرها معاشرة جنسية فعلية بعد أن وصل إلى مرحلة النضج الجنسي. لقد تمتع هذا الولد بما تمتع به الأطفال الآخرون في خيالاتهم وأمانيهم. لكنه هو الآخر لم يتطور إلى إنسان معتمد على نفسه، متزن، ذي عزيمة، كما كنا نتوقع، لو أخذنا بعين الاعتبار الآثار السيئة للتربية التي وصفناها من قبل.

لقد حصل نوع من البتر في نموه، إذ أنه بإرضائه الفعلي لرغبات الطفولة، قد أعفى نفسه من عناء استمراره في أن يسير كل المسافة التي يجب قطعها للوصول إلى مرحلة الرشد الناضج، وبذلك أصبحت رغبته في أن يكون مثل أبيه لكي يستمتع بمثل ما يستمتع أبوه به.. أصبحت

اسم الروائي النمساوي "فون ساشر ماسوش" **Von Sacher Masoch** الذي كان يجعل الشخصيات البارزة في رواياته يتلذذون من إيلامهم ومقاساتهم. والكلمة "سادي" مشتقة من اسم الماركيز دي ساد **Marquis de Asde** وهو روائي فرنسي كتب روايات إباحية مستهترة، وأتهم بجريمة قتل، وقضى آخر حياته في مستشفى للمجاذيب. (المعرب)

هذه الرغبة الآن سطحية. حقا إنه نجا من انقسام شخصيته، ولكنه في مقابل هذا قد ضحى بكل نمو بعد طفولته.

ولكنكم سوف ترون أن المشكلة ليست من الصعوبة بالدرجة التي عرضتها عليكم، وأن الاضطرابات في النمو والإجرام (إجرام الأحداث) قد تكون أقصى ما تصل إليه نتائجها، تلك النتائج التي تبين الأثر الضار للكبت المتزايد من جهة، وللحرية الكاملة وانعدام أي قيد من جهة أخرى. وواجب التربية التي تقوم على أسانيد تحليلية، هو أن تكشف لنا عن طريقة وسطى بين هاتين الطريقتين المتطرفتين، أي أن تسمح في كل مرحلة من مراحل حياة الطفل بفرص متعادلة تعادلا صحيحاً، لإرضاء الغرائز من جهة، والوقوف في طريقها من جهة أخرى.

وربما كان من الواجب أن تكون مادة محاضراتي لكم وصفا تفصيليا لهذه التربية التحليلية الجديدة، ولكننا لا نجد في الوقت الحاضر، تربية تحليلية؛ وإنما نجد أفراداً من المربين مهتمين بهذا النوع من التربية التحليلية (القائمة على التحليل) وهؤلاء بعد أن حُللوا تحليلا نفسيا، يجدُّون الآن في تطبيق المعلومات التي زودهم بها التحليل النفسي لحياتهم الغريزية الخاصة، وفهمهم لهذا التحليل، على تربية الأطفال. ولابد من أن يمضى زمن طويل، حتى تكتمل البحوث النظرية والعملية، وبذلك يمكن الإفادة منها في الحياة العامة.

وبالرغم من هذا، ينبغي ألا تظنوا أن التحليل النفسي لم يفعل شيئاً سوى أن يبين بعض الدلالات والاتجاهات الخاصة بالمستقبل؛ وأن

دراسته لا تعود بأية فائدة على المعلمين الذين يشتغلون في ميادين عملية؛ وأنه قد يكون من الفضل أن نحثهم على قطع علاقاتهم بالتحليل. وكذلك لا ينبغي لكم أن تقولوا بأن عليهم أن يبحثوا فيما أمكن الوصول إليه في أثناء عشرة أو عشرين سنة، من حيث تطبيق التحليل النفسي على مسائل التربية.

إني أعتقد أن التحليل النفسي، حتى في الوقت الحاضر، يفيد التربية في أمور ثلاثة: أولا أنه يستطيع الآن أن ينتقد الطرق التربوية السائدة؛ وثانياً إن التحليل النفسي الذي وضع لنا نظرية علمية للغرائز واللاشعور والليبيدو، وقد وسع من معرفة المعلم بالكائن البشري، وجعل فهمه للعلاقات المعقدة بين الطفل ومربيه اكبر تحديداً، وأعظم دقة؛ وأخيراً، فإنه من حيث كونه طريقة للعلاج العملي، يحاول في أثناء تحليله للأطفال، أن يصلح الأضرار التي يتعرض لها الطفل في أثناء تأثير عمليات التربية فيه.

والمثل الآتي يوضح النقطة الثانية، أي أنه يفسر الموقف التربوي في ضوء ما يقع وراء السلوك الشعوري من قوى لا شعورية:

بدأت معلمة قديرة القيام بمهمتها في سن الثامنة عشرة، ثم تركت منزلها نتيجة لظروف عائلية سيئة، وشغلت وظيفة مربية خاصة لثلاثة أولاد وكان الولد الثاني مثلا لمشكلة تربوية خطيرة فكان متأخراً في دروسه، وكان يظهر عليه جبن وحياء شديدان، كما كان يظهر عليه أنطواء على النفس وغباوة. وكان مركزه في الأسرة قليلا فرعياً. إذ

كان، دون أخويه الآخرين الموهوبين الجذابين، يُدفع به دائماً إلى هامش الأسرة. وقد وقفت المعلمة كل جهدها، وركزت كل اهتمامها في هذا الطفل. وتكللت جهودها، بعد وقت قصير نسبياً، بنجاح باهر.

وأضحى الولد مغرماً بمعلمته، ومتعلقاً بها لدرجة لم يسبق أن عانى مثلها مع أي أحد آخر من قبل، وأصبح معها أليفاً صريحاً في كل شيء، وزاد اهتمامه بالدروس، واستطاعت بفضل ما بذلته من جهود أن تعلمه في سنة واحدة، جميع الموضوعات الخاصة بسنتين. وبذلك زال تأخره في دراساته وأصبح الوالدان فخورين بطفلهما، وقد كانا من قبل لا يسبغان عليه إلا النزر من الحب؛ وزاد اهتمامها بأمره زيادة فائقة. وتحسنت صلاته بهما وبأخويه أيضاً. وأخيراً صار يُنظر إليه كأنه أهم وأفضل عضو في الأسرة. وعند ذاك ظهرت مشكلة غير متوقعة إذ بدأت المعلمة التي يرجع إليها كل الفضل في نجاح هذه الحالة، تعاني من جانبها متاعب مع هذا الولد. فتوقفت عن حبها له، وأصبحت غير قادرة على أن تمتزج به وتتعامل معه. وأخيراً تركت المنزل الذي كانت مقدرة كل التقدير فيه، بسبب الولد نفسه، الذي كان في بادئ الأمر، مناط اهتمامها، ومحور عطفها.

وقد كشف لها التحليل النفسي الذي عولجت به لأسباب تربوية، بعد أن مضى على هذا الحادث عشرون سنة، كشف لها عن حقائق تلك الحالة. فعندما كانت طفلة صغيرة تعيش في منزل أسرتها، تخيلت بحق كثير أو قليل، أنها طفلة غير مرغوب فيها. وهذا الموقف يشابه الموقف عينه

الذي وجدت الولد الصغير يعانيه فعلا في أسرته، عندما بدأت عملها معه. إنها رأت نفسها في ذلك الولد، لتشابه المعاملة السيئة التي كان يعامل بها، مع المعاملة التي تخيلت أنها كانت تلقاها في منزلها وهي طفلة صغيرة. ولذلك تمثله في نفسها. وكان معنى كل الحب والرعاية التي أسبغتهما عليه، أنها كانت تقول حقاً لنفسها: إن هذه المعاملة (معاملتها للطفل) العطوفة هي ما كان يجب أن أحظى بها حتى أنشأ فردا ذا قيمة. فلما تم لها النجاح في علاج الطفل، عمل هذا النجاح على تفكيك ذلك التمثل، إذ جعل التلميذ كائناً مستقلا لا يمكن بعد ذلك أن يمثَّل في حياتهما الخاصة.

وقد انبعثت مشاعر العداء الجديد، التي ملأتها ضده، عن حسدها له. إنها لم تستطع أن تقاوم حقدها عليه، لبلوغه نجاحاً لم تتمكن مطلقاً من أن تبلغه.

وقد تقولون إنه كان من حسن الحظ أن المعلمة لم تحلل نفسياً قبل أن تتعهد ذلك الطفل بالتربية، وإلا لما أصبنا مثل هذا النجاح العظيم في تربيته، ولكني أشعر أن مثل هذا النجاح في التربية، يشترى بثمن باهظ. إننا نعاني في مقابله، أنواعاً من الفشل في تربية أولئك الأطفال الذين لا يسعدهم الحظ في أن يُبدوا علائم المقاساة التي تذكر المربي بطفولته الخاصة، وتثير فيه لذلك الرأفة والعطف عليهم..

إني أعتقد أننا نكون على حق في المطالبة بأن يتعلم المربي أو المعلم، أن يقف على أنواع صراعه ويضبطها قبل أن يبدأ مهمته التربوية،

فإذالم يفعل ذلك، فإن تلاميذه يصبحون إلى درجة كبيرة أو قليلة، مادة مناسبة يعكس عليها متاعبه اللاشعورية الخاصة التي لم يستطع لها حلا.

وزيادة على ذلك، فقلما يكون السلوك الظاهري للطفل أساساً كافياً لأن نبني عليه حكماً صحيحاً. إنني سأسمعكم الآن المذكرات الآتية، التي أملاها ولد، كيما تكون الفصل الأول من كتاب كبير، وقد بقي الكتاب جزءاً لم يكتمل. وكذلك يفعل الأطفال غالباً؛ لا يتمون ما يبدأون الكتابة عنه.

الباب الأول

الأفعال الخاطئة التي يقوم بها الكبار

"ألا أعيروني آذانكم" أيها الراشدون الكبار، إذا أردتم أن تعلموا شيئاً!. لا تكونوا سفهاء كل السفاهة، فتتخيلوا أن الأطفال لا يستطيعون أن يفعلوا كل شيء يقوم به الكبار؛ بل إنهم قادرون على أن يفعلوا معظم ما تفعلون.

ولكن الأطفال لن يطيعوكم أبداً إذا وجهتم إليهم أوامركم بالشكل الآتي مثلا. "الآن إذهب واخلع ملابسك. أقول، بسرعة إذهب". إنهم بذلك لن يخلعوا ملابسهم أبداً. يجب ألا تعتقدوا أنهم يلبون هذا الأمر. ولكن إذا وجهتم إليهم الكلام بشكل لطيف، فإنهم يلبون أمركم هذا بسرعة. أنتم تظنون أنكم قادرون على أن تقوموا بكل ما ترغبون في القيام به؛ أبداً لا تتخيلوا ذلك ولا تقولوا مطلقاً: "يجب" أن تفعل هذا، و"يجب" أن تفعل ذاك!، فما من أحد "يجب" عليه أن يفعل شيئاً؛ وعلى ذلك ما من طفل "يجب" عليه أن يفعل شيئاً. إنكم تعتقدون أن الأطفال "يجب" عليهم أن يغتسلوا بكل تأكيد لا. ثم تقولون بعد ذلك، "ولكن إذا لم تغتسل، فإن كل إنسان يقول "آه" شيء منفر، ما أقذره!، ولذلك يجب أن تغتسل"؛ لا.. لا "يجب" عليه، ولكنه يغتسل حتى لا يسميه الناس قذراً.

"وإذا أخبرتم الأطفال ما يجب عليهم أن يقوموا به، فإن في ذلك الكفاية؛ ولا تكلموهم كثيرا عن كيفية القيام به، لأنهم يفعلون ما يعتقدونه صحيحاً، كما هو الحال معكم أيضا. ولا تقولوا لهم دائما "لا ينبغي لك أن تشتري هذا الشيء أو ذاك"، لأنهم ما داموا يدفعون ثمن شرائه بأنفسهم، فإنهم يستطيعون أن يشتروا ما يحلو لهم. ولا تقولوا للأطفال دائما "إنكم لا تستطيعون أن تفعلوا هذا!" لأنهم يستطيعون أن يفعلوا أشياء كثيرة أحسن منكم، وأنتم لا تصدقون هذا، ثم تدهشون بعد ذلك. لا تتكلموا كثيرا أبدا؛ أعطوا الأطفال فرصة لأن يتكلموا أحيانا".

والآن، افترضوا أنه عُثر هذه الكلمات المكتوبة في مدرسة، وأنها سلمت لمديرها. إنه سيقول لنفسه، "إن هذا ولد خطير يجب أن يراقب مراقبة شديدة". وقد يكشف من تحريات أخرى، أشياء أعظم خطراً عن الطفل من ذلك. لقد كان هذا الولد بالذات متعودا إبداء ملاحظات مستهجنة عن الخالق؛ ووصف القسس بأوصاف لا نستطيع أن نكررها؛ وحث زملاءه بكل قوة على ألا يقبلوا أي تدخل في شئونهم؛ بل إنه صمم على أن يذهب لحدائق الحيوان، ليحرر ما فيها من حيوانات كان يعد حبسها فيها إثما وخطيئة.

وهنا قد يقول معلم من طراز المدارس التربوية القديمة: "يجب أن نحطم في هذا الولد روح التمرد بأية وسيلة من الوسائل، قبل أن تفلت الفرصة، ويصبح الولد شرا مستطيرا على المجتمع". وعلى العكس من

ذلك، قد يرى المربي الحديث آمالا وضاءة في مستقبل هذا الطفل، فيتوقع أن يراه زعيما من زعماء المستقبل ومحررا للناس.

ويجب أن أقول لكم، إن كلا المعلمين يكون مخطئا في رأيه، وإن كل وسائل التدريب والتهذيب التي يلجأ إليها في ضوء معرفته بالموقف الظاهري، تكون وسائل فاشلة وضارة.. إن الولد في الثامنة من عمره، إنسان صغير جبان لا يضر ولا يؤذي، يهلع عندما ينبح كلب في وجهه، ويخشى أن يمشي في ممر مظلم في المساء، وبكل تأكيد ليس لديه القدرة على أن يؤذي ذبابة. إن كلماته الثائرة تصدر بالشكل الآتي: إن صلاته العاطفية الشهوانية المصحوبة بانهماكه في العبث بقضيبه[31]، قد دُمرت نتيجة لنوع من التربية والعلاج الطبي أصابه بصدمة عنيفة. وكيما يؤمن نفسه ضد الإغراءات الجديدة، فقد استبقى لديه خوفا شديداً من أن يوقع العقاب على العضو المذنب من جسمه، ذلك الذي يطلق عليه التحليل النفسي اسم خوف البتر "Castraion-fear" وقد نجم الآن، عن هذا الخوف، نكران الولد لكل أنواع السلطان إنه يقول لنفسه عندما يصادف شخصاً ذا بأس وقوة، "إذن إن لديه القدرة على أن يعاقبني". وتبعاً لذلك يجب أن يزول من الوجود كل احتمال بوجود حاكم أرضي أو سماوي. وكلما زاد خوفه من الإغراء، تضاعفت جهوده في إغراقه بهجماته غير الضارة على ذوي السلطان والسيادة. وهذه الطريقة اللجية في تأمين نفسه ووقايتها، ليست بالطريقة الوحيدة التي يلجأ إليها. فبالرغم من أنه يقوم بدور الكافر الملحد، فإنه يسجد في

[31] كان هذا الطفل بالذات يقوم بالعادة السرية.

المساء، ويصلي لله مدفوعاً في ذلك دفعاً خفياً بالرهبة والخوف. إنه يفكر، "ليس في الواقع من وجود للخالق. ولكن بالرغم من ذلك قد يوجد خالق. فعلى كل حال قد يكون أمراً حسناً أن أسلك سلوكاً مناسباً تجاهه". وإني أعتقد أن هذا الولد لن يصبح خطراً على المجتمع، كما أنه لن يصبح محرراً للجماهير. إن ما هو في حاجة إليه ليس شدة في المعاملة، وتقييداً وضغطاً له، ولكن كل ما يحتاجه فقط، وبأية وسيلة من الوسائل، هو تقليل من الخوف الذي يملؤه، حتى يصبح – وقد خلص من أسلوب حياته العصابي الشاذ – قادراً على أن يمتع نفسه، ويؤدي أعماله.

وطريقة العلاج بالتحليل النفسي، التي يمكن أن تؤدي إلى هذه النتيجة، هي الفائدة الثالثة، التي أمد بها التحليل النفسي التربية. ولكن وصف هذه الطريقة – أعني التحليل النفسي للطفل – أمر لا يدخل في نطاق هذا المنهج من المحاضرات.

الفهرس

- مقدمة المترجم **5**
- المحاضرة الأولى: نسيان الطفولة ومركب أوديب **17**
- المحاضرة الثانية: حياة الغريزة في الطفولة المبكرة **39**
- المحاضرة الثالثة: عهد الكمون **59**
- المحاضرة الرابعة: علاقة التحليل النفسي بالتربية **81**